مقتطفات
أدبية وتاريخية

يوسف الياس القرعاني

الطبعة الأولى ٢٠١٩

مقتطفات
أدبية وتاريخية

يوسف الياس القرعاني

الطبعة الأولى ٢٠١٩

المقدمة

بسم الله والحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى الله سبحانه نتوكل وبه نستعين، ونسأله التوفيق والسداد في عملنا هذا، وندعوه أن يجعل لنا لسان صدق، وأن يجعلنا نفَّاعين للإسلام والمسلمين. أما بعد، فسنستعرض من خلال هذا الكتاب، بإذن الله تعالى، عددا من الشخصيات والمواقف التاريخية والأدبية بدءاً من العصر الجاهلي حتى العصر العباسي مرورا بصدر الإسلام والأموي وكذلك العصر الأندلسي. ومن الجدير بالذكر أن بعض المقالات المكونة لهذا الكتاب تشتمل على شخصيتين إحداهما يغلب عليها الطابع الأدبي والأخرى يغلب عليها الطابع التاريخي.

ونهدف من خلال هذا العمل إلى إلقاء الضوء على بعض الشخصيات والأعمال الأدبية المميزة من لغتنا وتاريخنا العربي المجيد، وأن نتحرى الدقة ما استطعنا إلى ذلك سبيلا، خصوصا فيما يتعلق ببعض الشخصيات التي أثير حولها جدل كثير مثل الحجاج بن يوسف الثقفي، وشعارنا في ذلك الآية القرآنية الكريمة (تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُون) البقرة/ ١٣٤.

وسنحاول أن ننقل ما كتب عنهم في أمهات الكتب وهي المصادر التي كنت أعتمد عليها مثل كتاب تاريخ الإسلام للذهبي والبداية والنهاية لابن كثير رحمهما الله تعالى وأسكنهم الفردوس الأعلى من الجنة ونسأل الله سبحانه أن يلحقنا بعباده الصالحين وأن يجمعنا بهم في مستقر رحمته.

ولابد لنا من التذكير بأن هذه المقالات، باستثناء مقالة عنترة والسموأل ومقالة المغول بجزئها الثاني، كان قد تم نشرها في مجلة شركة البترول الوطنية الكويتية الصادرة في دولة الكويت.

وكانـت مقالـة المغـول الأولى هـي آخـر مـا كتبتـه في سلسـلة مقتطفـات أدبيـة وتاريخيـة في المجلـة وقـد تـم نـشر هـذه المقالات مـا بين العـدد: (٤٢٧ أغسـطس ٢٠١٣) و العـدد :(٤٥٨ أبريـل ٢٠١٦).

ومـن هـذا المقـام، أود أن أتقـدم بجزيـل الشـكر لـكل مـن سـاهم في هـذا العمـل مـن تنظيـم وتنسـيق وإخـراج وتصميـم وطباعـة ومـن شـجعني عـلى المـضي قدمـا في تجميـع هذه المقـالات ونشرها في كتاب واحـد وطباعته وأخص بالذكر منهم السيـد أبو محمود عـلاء البستـان وكذلـك المخـرج والمصمـم أبـو فالـح مـروان عـواد. ونسـأل اللـه تعـالى التوفيـق والسـداد وأن يعلمنـا مـا ينفعنـا وأن ينفعنـا بمـا علمنـا، ولـه الحمـد أولاً وآخرا.

يوسف الياس عبدالله القرعاني

تمهيد

نشأة اللغة العربية

يعـود أصـل اللغـة العربيـة إلى اللغات السـامية، وهي إحدى أقـدم اللغات في العـالم. وأقـدم النصـوص التـي عـثر عليهـا في اللغـة العربيـة تعـود إلى القرن الثالـث الميـلادي، وهـي عبـارة عـن قصائـد جاهليـة. وتشـير أكـثر الروايات إلى أن الموطـن الأصـلي للغة العربية هـي أرض الحجاز؛ أي الجزيـرة العربية ومنها امتـدت إلى أماكـن أخرى حتى جاء الإسـلام ونزل بها القـرآن ونقلتها الفتوحات الإسـلامية إلى مختلف أرجـاء العالم.

أهمية اللغة العربية

كفـى باللغـة العربيـة فخرا أنهـا لغة القـرآن الكريم، وكفى بالقـرآن الكريم فخـرا أنـه كلام اللـه جل وعـلا. وكان القرآن الكريـم، بفضل الله تعـالى، العامل الأهـم في حفـظ اللغـة العربيـة وإبـراز جزالتهـا وقوتهـا وحفظـت مـن خلالـه قواعـد اللغـة ومفرداتهـا وثبتـت عـلى حـال واحـد منـذ زهـاء ألـف وأربعمائة عـام وستسـتمر إلى أن يـرث الله تعـالى الأرض ومن عليها وعـلى حالها هذا لأن اللـه سـبحانه وتعـالى قال: (إِنَّـا نَحْنُ نَزَّلْنَـا الذِّكْرَ وَإِنَّـا لَهُ لَحَافِظُـونَ) الحجر/٩. فلغـة حملـت الـكلام الإلهـي تسـتحق كل الاحـترام والتبجيـل وكذلـك بذل كل الجهـود الممكنـة لتعلمهـا وفهم معـاني مفرداتهـا الوافرة.

وقـد بـذل علماء اللغـة منذ القدم جهـودا جبارة لتوثيـق قواعدها وضبطها مـن خـلال وضـع النقـاط عـلى الحـروف لتيسـير قراءتهـا وفهمهـا خصوصـا عندمـا يتعلمهـا غـير العـرب، ووضعـوا قواعـد النحـو والإعـراب وبحور الشـعر كـما سـيمر علينـا في مقـالات مقبلـة، إن شـاء اللـه تعـالى. لقـد أطلـق عليهـا المسـلمون لغـة القـرآن والسـنة. وقـال الله تعـالى: (وَلَقَـدْ نَعْلَـمُ أَنَّهُـمْ يَقُولُونَ

إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ) النحل/١٠٣. وقد نزل القرآن على شكل معجزة للعرب الذين كانوا يعتزون بفصاحتهم ويتميزون بدقة التصوير والتشبيه فجاءهم القرآن وتحداهم في نفيس بضاعتهم، وخلدها خلود الزمن حتى إنها أصبحت اللغة الوحيدة الخالدة على وجه الأرض، لما تتعرض له اللغات الأخرى من تحديث وتغيير كبير خلال تاريخها.

وهنا قد يقول البعض إن لغات قديمة كانت ولا تزال موجودة، وهذا صحيح من حيث المبدأ ولكن هذه اللغات دخلت عليها تعديلات وتغييرات كثيرة. لو أخذنا اللغة الإنجليزية مثالا على ذلك نجد أن جذورها تمتد منذ منتصف القرن الخامس إلى القرن السابع الميلادي، ومع ذلك فقد تغيرت كثيرا ولو طلبنا من شخص متعلم من إحدى الدول التي تستخدم فيها الإنجليزية كلغة أولى أن يقرأ لنا نصا من القرن السادس فلن يفهم الكثير من مفرداته. وهذا عكس اللغة العربية فهي نفسها التي كان يتكلمها أجدادنا قبل ١٤٠٠ سنة وإن كنا قد ابتعدنا عنها بسبب اللهجات ولكن نستطيع أن نقرأها ونفهمها كما هي.

ولمعرفة ما تميزت به اللغة العربية عن اللغات الأخرى يمكننا أن نجري مقارنة بسيطة بينها وبين اللغات الأخرى من حيث عدد المفردات ثم سندرك سعة الفرق بينهم وأنه لامجال هناك للمقارنة. نأخذ على سبيل المثال أكثر لغة في العالم من حيث عدد المتحدثين وهي اللغة الإنجليزية التي يقرب عدد مفرداتها من ٦٠٠ ألف كلمة وأعلى تقدير لها أشار أنها تقرب من مليون مفردة، بينما تقرب اللغة الفرنسية من ١٥٠ ألف كلمة والروسية حوالي ١٣٠ ألف كلمة والتركية ما يقرب من ١١١ ألف كلمة، بينما تتجاوز مفردات اللغة العربية ١٢ مليون مفردة وهناك تقديرات تقول بأن مفرداتها أكثر من ذلك بكثير.

الشعر في اللغة العربية

عندما نتأمل الأدب العربي عموما نجد أن الشعر يطغى عليه ويتجاوز المجالات الأدبية الأخرى كالمسرح والرواية والنثر. وقد أبدى العرب اهتماما كبيرا بالشعر منذ القدم وسطروا قصائد رائعة خلدت على مر الزمان. وكان للشعر أغراض أخرى لدى القبائل العربية المنتشرة في مختلف البلدان منها الدفاع عن أنفسهم والذب عن قبائلهم. وكان الشعراء يقومون بمقام المدافع عن بلدانهم وقبائلهم مثلهم في ذلك مثل الصحفي أو الناطق الرسمي أو وزير الإعلام بالنسبة للدول المعاصرة.

وكان الشعراء ينظمون القصائد لإبراز محاسن ومميزات قبائلهم والنيل من أعدائهم بالهجاء وكان هذا أكثر وضوحا خلال العصر الجاهلي من العصور الأخرى. ويعرف الشعر أيضا بأنه ديوان العرب وفيه سجل حياتهم وسطور أمجادهم وتصوير انتصاراتهم، وهو مصدر للحكمة التي تستفيض من بين أبياته. وكان بعض الشعراء يلعبون دور المصلح الاجتماعي من خلال مدح الأعمال الحسنة والمفيدة للمجتمعات وكذلك ذم الأفعال الدنيئة ومدح مكارم الأخلاق والأشخاص الذين يتحلون بها.

مكانة الشعر في اللغة العربية

لقد تميز العرب في الجاهلية والإسلام بفصاحة النطق لذا أنجبت الأمة الكثير من الشعراء وكان للشعر مكانة عظيمة بين العرب وكان يستخدم ليس فقط للمدح والهجاء وإنما لحفظ التاريخ أيضا. فقد وثق الشعر العديد من الحوادث قبل وبعد الإسلام بقصائد شعرية رائعة، ولن نستطرد في سرد الأمثلة لأنها كثيرة جدا وسنذكر فقط معركة ذي قار التي خلدها صناجة العرب (الأعشى) في قصيدة طويلة قال فيها:

فـــدى لبني ذهل بـــن شـــيبان ناقتي وراكبهـا يـوم اللقـاء وقلـت
هـــم ضربـــوا بالحنـــو حنـــو قراقـــر مقدمـة الهامـرز حتـى تولـت
فللـــه عينـــا مـــن رأى مـــن عصابـــة أشـد عـلى أيـدي السـقاة مـن التـي
أتتهـــم مـــن البطحـــاء يـــبرق بيضها وقـد رفعـت راياتهـا فاسـتقلت
فثـــاروا وثرنـــا والمنيـــة بيننـــا وهاجـت علينـا غمـرة فتجلـت
فجـــادت عـــلى الهامرز وســـط بيوتهم شـآبيب مـوت أسـلت واسـتهلت
تناهـــت بنو الأحـــرار إذ صـــبرت لهم فـوارس مـن شـيبان غلـب فولـت

لقـد كان ومـا زال الرافـد الرئيـس للأدب العربي هو الشـعر الذي طغى على كافـة المجـالات الأدبيـة الأخـرى، وكذلك تبقى للشـعر مكانتـه في معظم لغات العـالم وإن تقدمـت عليـه بعـض الجوانب الأدبيـة في لغات أخـرى كالمسرح في اللغـة الإنجليزيـة؛ لـذا يمكننـا القول بأن اللغـة العربية هي «لغة الشـعر» وأن اللغـة الإنجليزيـة هـي «لغـة المسرح» لمـا للمسرح مـن مكانة كبـيرة تفوق بها على مكانة الشـعر.

لقـد تربـع الشـعر عـلى عـرش اللغـة العربيـة لأن أهلهـا تميـزوا بالبلاغـة والفصاحـة فـكان للشـعر التأثـير البالـغ عليهـم وكان يسـتخدم أيضـا لإثـارة الحماسـة ورفـع الهمـم وكان العـرب يتفاخـرون فيـما بينهـم مـن خـلال نظـم القصائـد المميـزة والمعلقـات الشـعرية، وكان الشـعر هـو الـذي وحـد بعـض قبائـل العـرب قبيـل معركـة ذي قـار فـكان النـصر حليفهـم.

فصاحة العرب في الجاهلية وصدر الإسلام

كان العـرب يتمتعـون بفصاحـة اللسـان وحسـن المنطـق وكان رسـول اللـه ﷺ أفصـح العـرب وقـد أعجـب ببلاغتـه كل مـن سـمعه. قـال الصديـق أبـو بكـر رضي اللـه عنـه وأرضـاه: «لقد طفت في العـرب وسـمعت فصحاءهم، فما سـمعت أفصـح منـك»، أي رسـول اللـه ﷺ. وقـال عـلي بـن أبي طالـب رضي اللـه عنـه: «مـا سـمعت كلمـة غريبـة مـن العـرب إلا سـمعتها من رسـول الله ﷺ» وسـمعته يقـول: «مـات حتـف أنفـه»، ومـا سـمعتها مـن عـربي قبلـه.

وقال رضي الله عنه: «يا رسول الله نحن بنو أب واحد ونراك تكلم وفود العرب بما لا نعرفه، فمن علمك». وكان رسول ﷺ يقول: «حق لي فإنما أنزل القرآن علي بلسان عربي مبين». ولا عجب في ذلك لأن القرآن الكريم الذي أذهل الفصحاء الكافرون منهم والمسلمون نزل على رسول الله ﷺ والله تعالى وصفه بأنه لا ينطق عن الهوى (وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى إِنْ هُوَ إِلا وَحْيٌ يُوحَى عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى) النجم/٥/٤/٣. والكثير منا يعلم أنه عندما تلا الرسول ﷺ الآيات الأخيرة من هذه السورة (وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى مِنْ نُطْفَةٍ إِذَا تُمْنَى وَأَنَّ عَلَيْهِ النَّشْأَةَ الْأُخْرَى وَأَنَّهُ هُوَ أَغْنَى وَأَقْنَى .....) إلى نهاية السورة، فقد سجد كل من كان في البيت الحرام الكفار والمسلمون، إلا رجلا واحدا مسنا. وكان سجود الكفار تأثرا بروعة المنطق وعذوبة كلام الله سبحانه وتعالى، وعندها بلغ المهاجرين في الحبشة بأن قريشا أسلمت ورجع فريق منهم إلى مكة لكنهم عادوا إلى الحبشة بعدما تبينوا أن قريشا لم تسلم كما بلغهم، وإنما تأثروا بما تلي عليهم من القرآن الكريم فسجدوا.

الشعر في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم

ما كان الرسول ﷺ شاعرا وما ينبغي له (وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنبَغِي لَهُ) يس/٦٩، الآية، ولكنه عاش ﷺ في بيئة مليئة في الشعر والبيان والبلاغة فأحب الشعر واستنشده وكان له شعراؤه مثل حسان بن ثابت وعبدالله بن رواحة. وقال ﷺ: « إن من البيان لسحرا ». وقد كان شاعر الرسول ﷺ حسان بن ثابت يجب ويدافع عن الإسلام والمسلمين بشعره وربما كان شعره على الكفار أمضى من ضربات السيوف وطعن الرماح، وقد هجا أبا سفيان قبل إسلامه لمعاداته لرسول الله ﷺ والمسلمين، قائلا:

وقال الله قد أرسلت عبدا يقول الحق إن نفع البلاء
شهدت به فقوموا صدقوه فقلتم لا نقوم ولا نشاء
وقال الله قد سيرت جندا هم الأنصار عرضتها اللقاء
لنا في كل يوم من معد سباب أو قتال أو هجاء
فنحكم بالقوافي من هجانا ونضرب حين تختلط الدماء
ألا أبلغ أبا سفيان عني مغلغلة فقد برح الخفاء
بأن سيوفنا تركتك عبدا وعبد الدار سادتها الإماء
هجوت محمدا فأجبت عنه وعند الله في ذاك الجزاء
أتهجوه ولست له بكفء فشركما لخيركما الفداء
هجوت مباركا برا حنيفا أمين الله شيمته الوفاء

جوامع الكلم

كان رسول الله ﷺ سليم الفطرة فصيح المنطق وافر المفردات وساعده ذلك على اشتقاق وتصريف الكلام وكان كلامه موجزا ومعبرا. وقد قالت العرب: «البلاغة في الإيجاز وخير الكلام ما قل ودل». قال ﷺ: «أوتيت جوامع الكلم». وقال: «الآن حمي الوطيس». وقال: «هذا يوم له ما بعده». وقال: «رفقا بالقواريـر»، والكثير غير ذلك.

وكما أسلفنا سنستعرض في هذا الكتاب، بإذن الله تعالى، بعض المواقف الأدبية والتاريخية للأدباء العرب وسنسلط الضوء على إنجازات تاريخية تحسب لمن قاموا بها وبذلوا الجهود لتحقيقها كوضع النقاط على الحروف ووضع التشكيل (الحركات) على الحروف أيضا، وغير ذلك من الجوانب الأدبية والتاريخية. والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين.

الفصل الأول

العصر الجاهلي

هـو العـصر الأدبي الأول أو مـا يعـرف بعـصر مـا قبل الإسـلام واسـتمر قرابة ١٥٠ سـنة قبـل بعثـة النبـي ﷺ، وسـمي بذلـك لانتشـار الجهـل بـين العـرب لكنـه لم يكـن الجهـل العلمـي وإنما هـو الجهـل الديني خاصة بعدمـا اجتاحت عبـادة الأوثـان الجزيـرة العربيـة بعـد أن كانـت خاليـة منهـا، وكان العـرب حينـذاك عـلى ديـن إبراهيـم الخليـل عليه السـلام. لقـد ذكر ابن كثـير في كتابه «البدايـة والنهايـة» أن أول مـن أدخـل الأصنـام إلى جزير العرب هـو عمرو بن لحـي الخزاعـي، أحـد سـادات مكـة المشـهورين بالكـرم، وكان قـد جلـب أحـد هـذه الأصنـام مـن الشـام خـلال رحلة قـام بهـا إلى تلـك البقاع.

أمـا مـن الناحيـة الأدبيـة والفكريـة، فقد أبـدع العـرب في تلك الفـترة وتم نقل الكثـير مـن شـعرهم الـذي صور حياتهـم وتاريخهـم واشـتهروا بالفصاحة ودقة التصويـر والتعبـير وبـرز منهم عدد كبير من الشـعراء خاصة في المائة سـنة التي سـبقت الإسـلام وهـو زمـن المعلقـات الشـعرية والكثير مـن القصائد الشـعرية التـي وثقـت جوانـب مهمة من حياتهم في تلـك المرحلة. يعد شـعراء المعلقات مـن أبـرز شـعراء العـصر الجاهـلي مثل امـرئ القيـس والأعشى وعنـترة وعمرو بـن كلثـوم وطرفة بـن العبد.

كان العـرب أهـل فصاحـة وشـعر منـذ القدم لكن أغلـب القصائـد التي تم حفظهـا تعـود إلى المائـة عام التي سـبقت الإسـلام وربما كان ذلك بسـبب قربها مـن العـصر الأمـوي حيـث بـدأت حركـة التدويـن وحفـظ الشـعر والقصـص المختلفـة مـن خـلال تدوينهـا في كتـب خاصـة بهـا ولم يكـن ذلـك متوفـرا في العـصر الجاهـلي ولا عصر صدر الإسـلام، وشـهدت حركة التدويـن ازدهارا كبيرا مـع بدايـة العـصر العباسي.

كان أدب العـصر الجاهـلي أجـود الأدب العـربي وفيـه المعلقـات التـي لو لم يقـل الشـعراء غيرها لكفـت. وكان العرب يعقـدون المجالس الأدبيـة والندوات الشـعرية في الأسـواق كسـوق عـكاظ حيـث يتوافـد إليـه الشـعراء والتجار من مختلـف الأماكـن. وقـد تميـز العـصر الجاهـلي بتصوير البيئـة الصحراويـة التي عاشـوا فيهـا والتـي كان يسـودها الجفـاف والبـداوة فغلـب هـذا الطابـع على أهلهـا وسـاهم في سـقل مهاراتهـم وخصالهم لذا كانوا يتحلـون بصفات حميدة مثـل الشـهامة والوفـاء والكـرم وإغاثة الملهوف والشـجاعة.

امرؤ القيس

حياته ونسبه

هو جندح بن حجر بن الحارث بن عمرو بن حجر الكندي. ولد بالجاهلية نحو ٥٢٠ م في نجد. يعتبر امرؤ القيس أحد أهم شعراء العصر الجاهلي والشعراء العرب، وكان والده ملك أسد وغطفان، وأمه فاطمة بنت ربيعة، أخت الزير سالم وكليب.

كانت حياة امرئ القيس حافلة بالأحداث التاريخية والأدبية ولكننا سنركز، إن شاء الله، في هذه المقالة على الجانب الأدبي من حياته والتي أثارت الكثير من الجدل خصوصا بعض أبياته وقصائده التي وصفت بالفاحشة. لكنه يبقى الشاعر الذي لا يشق له غبار، ويعتبر شعره حجة عند الأدباء وأهل اللغة. لن نتحدث طويلا عن حياة اللهو والمجون التي عاشها امرؤ القيس في بداية حياته والتي كانت سببا للنفور بينه وبين أبيه، ملك كندة، فتبرأ منه ثم ابتعد امرؤ القيس عن أبيه ولكنه ازداد مجونا في هذه المرحلة، إلى أن قتل بنو أسد أباه فانقلبت بعد ذلك حياته رأسا على عقب. لذا تقسم حياته إلى مرحلتين، الأولى مرحلة اللهو والمجون قبل مقتل أبيه، والثانية مرحلة الجد والفروسية والأخذ بالثأر بعد مقتله.

ويسمى امرؤ القيس بالملك الضليل لأنه ضيع الطريق الذي يوصله إلى الملك الذي فقده من أبيه، ويسمى أيضا بذي القروح لأصابته بقروح أدت إلى موته بسبب عباءة مسمومة ألبسها إياه قيصر فأثمرت هذه العباءة أو الحلة جراحا مميته في جسده.

مقتل والده والثأر له

كانت وفاة والده نقطة فارقة في حياته، حيث اختلفت تماما عن المرحلة السابقة لأنه أحس بعظم المسؤولية التي وقعت على عاتقه، مع أنه لم يكن الابن الأكبر للملك، إلا أنه كان المبادر من بينهم. عندما سمع بمقتله قال: «ضيعني صغيرا وحملني دمه كبيرا، لا صحو اليوم ولا سكر غدا، اليوم خمر وغدا أمر». عندها أعد للحرب عدتها وتوجه نحو بني أسد، فخافوا منه وحاولوا استرضاءه لكنه قاتلهم وأثخن فيهم القتل. وقال في ذلك:

يا أيها السائل عن مجدنا إنك مستغبى بنا جاهل
إن كنت لم تأتك أنباؤنا فاسأل بنا يا أيها السائل
سائل بنا حجرا غداة الوغى يوم يؤتى جمعه الحافل
فأوردوا سربا له ذبلا كأنهن اللهب الشاعل

وتوجه أيضا إلى اليمن ليطلب المدد من أعمامه هناك، فجمع جمعا غفيرا من حمير ومذحج ثم اتجه نحو بني أسد مرة أخرى وانتقم من قاتل أبيه وذبح عمرو بن الأشقر سيد بني أسد، حينها أنشد منتشيا بنصره:

قد قرت العينان من مالك ومن بني عمرو ومن كاهل
ومن بني غنم بن دودان إذ نقذف أعلاهم على السافل
حتى تركناهم لدى معرك أرجلهم كالخشب الشائل
حلت لي الخمر وكنت أمرأ عن شربها في شغل شاغل
فاليوم أسقى غير مستحقب إثما من الله ولا واغل

قال أبو الفرج الأصفهاني: ناصر امرؤ القيس أقاربه من تغلب وبكر في قتاله، وأوقع تحالفهم مع امرئ القيس الرعب في بني أسد فأرسلوا رسلا إليه عارضين، علاوة على الفدية المعتادة، تقديم أحد زعمائهم إليه ليفعل به ما يشاء. وبعد قضاء امرؤ القيس ليلة قلقة رفض عرضهم في الصباح، وأعاد الرسل وهاجم بني أسد وهزمهم مرة أخرى. أراد امرؤ القيس أن يتابع مطاردتهم، لكن تغلب وبكر رفضتا، تشاؤما، وعادتا إلى ديارهما. في هذه الأثناء بدأ أنصاره يتخلون عنه فطلب العون من أمير الحميرية

مرتـضى الخـير، الـذي وعـده بخمسـة مئـة رجـل، لكنـه مـات ولم يفعـل خلفه هـذا. وحـين وجـد أنـه لـن يحصـل على مسـاعدة مـن أمـير اليمن، قصـد بلاط الإمبراطـور جوسـتينين، لكـن لسـوء حظـه أن عربيا كان قد سـبقه هنـاك وكان والـد امـرئ القيـس قـد قتـل والـد ذلك العـربي، فأثـر عـلى الإمبراطـور وجعله يحقـد عـلى امـرئ القيـس ولم يحصـل منه عـلى شيء.

طلـب امـرؤ القيـس مسـاعدة أقاربـه الآخريـن، لكنهـم رفضـوا تباعـا، وبمسـاعدة مرتزقـة مـن القبائـل اسـتطاع متابعـة ثـأره. وذات يـوم التجأ امرئ القيـس إلى مطالعـة طالعـه عند صنم يقـال له «ذو الخصلة»، كـما كانت عادة العـرب في الجاهليـة قبـل اتخـاذ القـرار، فسـحب سـهام الحـظ الثلاثـة «الآمـر والناهـي والمتربـص» وكان حظـه المنـع ثـلاث مـرات. كـسر الأسـهم وألقـى بها في وجـه الصنـم قائـلا: «لـو أبـوك قتـل ما عقتنـي». وتبـع بني أسـد وظفر بهم مـرة أخرى.

وصلـت هـذه الأخبـار إلى المنـذر، ملك الحيرة، فأرسـل فرسـان لحـرب امرئ القيـس الـذي هـرب من مـكان إلى آخر ومـن قبيلة إلى أخرى، مـن اليمن حتى نهـر الفـرات، باحثـا عـن مـأوى وحاملا معـه ما تبقى مـن إرث. وكان يسـتقبل في كل مـكان بالترحـاب بسـبب قصائـده، لكن بخشـية من غضـب ملك الحيرة.

وبعـد ترحـال طويـل لجـأ إلى السـموأل الـذي بنـى لنفسـه حصنـا في واحة تيـماء شـمال نجـد، حيـث كان بإمكانـه تحـدي كل القادمـين. ويقـال إن امـرأ القيـس كان مـا زال يحمـل خمسـة أطقـم قتـال ورثها عـن أجداده، لـكل منها اسـم، وكان معه ابنته هند وابن عمه زيد. اسـتقبل السـموأل كل هؤلاء تحت حمايتـه وبقـوا هنـاك حتـى زادت ضغـوط المنذر ولم يـود امرؤ القيـس توريط مضيفـه في المشـاكل وبنـاء عـلى نصيحته ذهـب إلى القيصر في القسـطنطينية.

شعره

جاءت معلقة امرئ القيس على البحر الطويل حيث ينتهي كل بيت بتفعيلة مزدوجة وبصوت «لي». وقال بعض المستشرقين إنها الأنموذج الذي استخدمه باقي شعراء المعلقات فيما بعد حيث أسس لمدرسة جديدة في الشعر العربي. وهي التي تحتوي، من بين المعلقات السبع، على أهم العناصر الإنسانية والطبيعية ويسهل فهما أيضا. يبدأ الشاعر معلقته بمغامراته الغرامية ثم يذهب إلى وصف الليل في الصحراء والسحر وامتطاء جواده، وقيادة الضباء والاحتفال عند الغروب. وهكذا خالف امرؤ القيس الكثير من التقاليد، خصوصا التقاليد الشعرية وذلك من خلال غزله الفاحش، ويعتبر أول من أدخل الشعر إلى مخادع النساء. قال ابن الكلبي إنه كان يختلط مع شذاذ العرب من طي وكلب وبكر بن وائل فيقيمون في الأماكن التي يتوافر بها الصيد والماء فيذبحون النوق ويشربوا الخمر، لذا لم يكن والده راضيا عن نمط حياته هذا. وقال ابن قتيبة إنه كان من عشاق العرب حيث اشتهر بحبه لفاطمة، والتي كانت السبب وراء نظم معلقته الشهيرة التي يقول فيها:

أفاطم مهلا بعض هذا التدلل وإن كنت قد أزمعت صرمي فأجملي
وإن تك قد ساءتك مني خليقة فسلي ثيابي من ثيابك تنسل
أغرك مني أن حبك قاتلي وأنك مهما تأمري القلب يفعل
وأنك قسمت الفؤاد فنصفه قتيل ونصف بالحديد مكبل
وما ذرفت عيناك إلا لتضربي بسهميك في أعشار قلب مقتل

ويرى بعض الأدباء أن هذه الأبيات من أجود ما قيل في الغزل ويرون أن البيت الثاني والثالث أفضل الغزل على الإطلاق، ولكن يخالفهم البعض، فمنهم من يرى أن الأفضل من هذا هو قول جرير:

إن العيون التي في طرفها حور قتلننا ثم لم يحيين قتلانا

قال ابن كثير في «البداية والنهاية»: إن المعلقات السبع كانت معلقة في الكعبة، وذلك أن العرب كانوا إذا عمل أحدهم قصيدة عرضها على قريش،

فإن أجازوها علقوها على الكعبة، تعظيما لشأنها، فاجتمع من ذلك هذه المعلقات السبع، والأولى لامرئ القيس بن حجر، والثانية للنابغة الذبياني، والثالثة لزهير بن أبي سلمى، والرابعة لطرفة بن العبد، والخامسة لعنترة بن شداد، والسادسة لعلقمة بن عبدة، والسابعة للبيد بن أبي ربيعة.

لا خلاف بين أصحاب اللغة المعاصرين منهم والقدماء بأن معلقة امرؤ القيس هي أحد أهم وأفضل التحف الأدبية في الشعر العربي، وترجمت إلى عدة لغات أيضا. وقال فيها:

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل — بسقط اللوى بين الدخول فحومل
فتوضح فالمقراة لم يعف رسمها — لما نسجتها من جنوب وشمال
وقوفا بها صحبي علي مطيهم — يقولون لا تهلك أسى وتجمل
وإن شفائي عبرة مهراقة — فهل عند رسم دارس من معول
كدأبك من أم الحويرث قبلها — وجارتها أم الرباب بمأسل
ففاضت دموع العين مني صبابة — على النحر حتى بل دمعي محملي
ويوم عقرت للعذارى مطيتي — فيا عجبا من كورها المتحمل
فظل العذارى يرتمين بلحمها — وشحم كهداب الدمقس المفتل
وليل كموج البحر أرخى سدوله — علي بأنواع الهموم ليبتلي
ألا أيها الليل الطويل ألا انجلي — بصبح وما الإصباح منك بأمثل
فيا لك من ليل كأن نجومه — بكل مغار الفتل شدت بيذبل
كأن الثريا علقت في مصامها — بأمراس كتان إلى صم جندل
وقد أغتدي والطير في وكناتها — بمنجرد قيد الأوابد هيكل
مكر مفر مقبل مدبر معا — كجلمود صخر حطه السيل من عل
كميت يزل اللبد عن حال متنه — كما زلت الصفواء بالمتنزل
له أيطلا ظبي وساقا نعامة — وإرخاء سرحان وتقريب تنفل
كأن على الكتفين منه إذا انتحى — مداك عروس أو صلاية حنظل
وبات عليه سرجه ولجامه — وبات بعيني قائما غير مرسل

وقال يصف حال صديقه قبيل التوجه إلى قيصر طالبا المدد:

بكى صاحبي لما رأى الدرب دونه — وأيقن أنا لاحقان بقيصرا
فقلت له لا تبك عينك إنما — نحاول ملكا أو نموت فنعذرا

الحكمة في شعر امرئ القيس

أصبحت بعض كلمات وأبيات امرئ القيس حكمة وامثالا يرددها العرب، ومن ذلك قوله عندما سمع بمقتل أبيه «اليوم خمر وغدا أمر». وتعني هذه العبارة أن وقت اللهو والمسرات قد انصرم وجاء وقت الجد والحزم. وله بعض الأبيات التي أصبحت أمثالا فيما بعد كقوله:

وليس غريبا من تناءت ديارُه ولكن من وارى التراب غريب

وكذلك بيته الذي طالما تعجب به الأدباء والشعراء:

وإن تك قد ساءتك مني خليقة فسلي ثيابي من ثيابك تنسل

والمقصود بالثياب ليس الملابس التي نعرفها، وإنما هو القلب، واستخدمها عنترة بن شداد في معلقته على نحو مماثل عندما قال:

فشككت بالرمح الأصم ثيابه ليس الكريم على القنا بمحرم

وأيضا الثياب هنا تعني القلب.

أما امرؤ القيس فيقول لفاطمة من خلال هذا البيت، إن كرهت خصلة من خصالي فردي علي قلبي كي أفارقك، أو استخرجي قلبي من قلبك حتى أنساك.

ماذا قال عنه الأدباء؟

قال محمد بن سلام: سألت يونس النحوي عن أشعر الناس فقال: لا أومي إلى رجل بعينه ولكني أقول: امرؤ القيس إذا ركب، والنابغة إذا رهب، وزهير إذا رغب، والأعشى إذا طرب.

وروى البيهقي في المعارج قال: سأل رجل الفرزدق عن أشعر الناس، فقال: الذي يقول:

وما ذرفت عيناك إلا لتضربي بسهميك في أعشار قلب مقتل

وسأل الأخطل عن أشعر الناس، فقال الذي يقول:

كأن عيون الوحش حول خبائنا وأرجلنا الجزع الذي لم يثقب

وكل هـذه الأبيـات قالهـا امـرؤ القيس. وذكر أن هشـام بن عمـرو التغلبي، والي السـند، كان يفضـل النابغـة عـلى امـرئ القيس، وكان معه مـن العرب من يفضـل امـرأ القيـس عـلى باقي الشـعراء. فقال هشـام ذات ليلة في سـمره: من يحسـن أن يقـول مثل قـول النابغة:

كليني لهم يا أميمة ناصب ... وليل أقاسيه بطيء الكواكب
وصدر أراح الليل عازب همه ... تضاعف فيه الحزن من كل جانب
تطاول حتى قلت ليس بمنقض ... وليس الذي يرعى النجوم بآئب

فقـال ذلـك الرجـل الـذي يفضـل امـرأ القيـس: أحسـن من ذلـك امـرؤ القيس الـذي قال:

وليل كموج البحر أرخى سدوله ... علي بأنواع الهموم ليبتلي
فقلت له لما تمطى بصلبه ... وأردف أعجازا وناء بكلكل
ألا أيها الليل الطويل ألا انجلي ... بصبح وما الإصباح منك بأمثل

فاعترف هشام بتفضيل امرئ القيس.

ما روي عنه من غرائب!

رويـت عـن امـرئ القيـس الكثير مـن الغرائـب، وبعضها جاء تقليـدا لبعض آي القـرآن الكريـم، ولكـن هـذه الأبيـات رويـت في مواقـع متفرقـة ولم تـرد في ديوانـه الشـعري على الإطـلاق ولم ترد ضمـن القصائد المعروفة لامـرئ القيس، وإنمـا كانت أبيـات متفرقة يسـهل تلفيقهـا، مثل:

دنت الساعة وانشق القمر ... غزال صاد قلبي ونفر
مر يوم العيد بي في زينة ... فرماني فتعاطى فعقر
بسهام من لحاظ فاتك فر ... عني كهشيم المحتظر

وهـذه محـاكاة لبعـض آيـات القـرآن الكريـم في مطلـع سـورة القمـر. قـال تعـالى: (اقْتَرَبَـتِ السَّـاعَةُ وَانْشَـقَّ الْقَمَـرُ وَإِنْ يَـرَوْا آيَـةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِـحْرٌ مُسْـتَمِرٌّ وَكَذَّبُـوا وَاتَّبَعُـوا أَهْوَاءَهُـمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُسْـتَقِرٌّ وَلَقَدْ جَاءَهُـمْ مِنَ الأَنْبَاءِ مَـا فِيـهِ مُزْدَجَرٌ).

وكما ذكرنا فإن هذه الأبيات ملفقة ولم تثبت عن امرئ القيس، وروي عنه أبيات أخرى على نحو مماثل.

وكذلك ورد في شأن امرئ القيس حديث نبوي، ولكن بعض رواة الحديث قالوا إنه ضعيف. ويصف هذا الحديث امرأ القيس بأنه حامل أو صاحب لواء الشعراء إلى النار. ففي مسند الإمام أحمد ومعجم الطبراني وغيرهما، عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال عن امرئ القيس: «ذاك رجل مذكور في الدنيا منسي في الآخرة، شريف في الدنيا خامل في الآخرة، يجيء يوم القيامة بيده لواء الشعراء يقودهم إلى النار». قال الأرناؤوط: إسناد هذا الحديث ضعيف جدا، كما ضعفه الألباني أيضا.

نهايته

قال ابن كثير في «البداية والنهاية»: إن امرأ القيس امتدح قيصر ملك الروم، يستنجده في حربه، فلم يجد عنده ما كان يأمله منه فهجاه بعدها، وقيل إنه سقاه سما فقتله، فألجأه الموت إلى جنب قبر امرأة، عند جبل يقال له عسيب. فقال في ذلك:

أجارتنا إن الخطوب تنوب ... وإني مقيم ما أقام عسيب
أجارتنا إنا غريبان ههنا ... وكل غريب للغريب نسيب
فإن تصلينا فالقرابة بيننا ... وإن تصرمينا فالغريب غريب
أجارتنا ما فات ليس يؤوب ... وما هو آت في الزمان قريب
وليس غريبا من تناءت دياره ... ولكن من وارى التراب غريب

توفي نحو ٥٦٥ م، ولم يعش عمرا طويلا لكنه كان حافلا في اللهو بداية حياته وبالحروب في نهايتها، وكانت له مساهمات أدبية عظيمة أثرت المكتبة العربية، لاسيما معلقته.

طرفة بن العبد

حياته ونسبه

هـو عمـرو بن العبد بن سـعد بـن مالك وهو من بكر بـن وائل. كان يلقب بطرفـة وغلب لقبه اسـمه الحقيقـي، وكان أيضا يلقب بـ «الفتـى القتيل»، لأنه مـات قبـل أن يتجـاوز سـن السادسـة والعشريـن. ولـد في البحريـن سـنة ٥٤٣ م، مـن أبويـن شريفـين. ولم يعمـر طويـلا، ورغـم عمـره القصـير فإنـه يعد أحد أبـرز شـعراء العـصر الجاهـلي المجيدين ولم تكن أشـعاره بالفاحشـة مثل امرئ القيـس وكانـت تفيـض الحكمـة على لسـانه. ينتمـي لأسرة غنية بالشـعراء من جهـة الأب والأم وكانـت سـيرته في صبـاه مشـابهة لسـيرة امـرئ القيـس حيـث كان عاكفـا عـلى اللهـو ومعاقـرة الخمـر، وسـاهمت مكانتـه في قومـه في زيادة جرأته عـلى الهجاء.

مـات أبـوه وهـو صغـير فـأبى أعمامـه أن يقسـموا لـه وظلمـوه، أي رفضـوا أن يعطـوه شـيئا مـن إرث أبيـه، وتـربى في كنـف أمه ثـم انـصرف إلى اللهو ولما اشـتدت عليـه وطـأة التمـرد والبعـد عـن القبيلـة عـاد إليهـا وراح يرعـى إبـل أخيـه «معبـد» إلا أنهـا سرقت منه. ولم تمهلـه المؤامرات كي يعيـش عمرا طويلا وإنمـا مـات مقتـولا وهـو في العشرينيـات مـن عمـره، ولم يكـن له ذنب سـوى إبداعـه الشـعري وذلـك بعـد أن هجـا عمـرو بـن هند، ملـك الحـيرة. وهو من حمـل الكتـاب الـذي كان بـه موتـه لعامـل عمـر بن هنـد عـلى البحرين.

يمثـل مقتـل طرفة بن العبد، في ريعان شـبابه، دفن كنز مـن العلم والمعرفة التـي كان يمكـن أن ينقلهـا للأجيـال التاليـة مـن خـلال قصائـده، وكذلـك إرواء عطـش عشـاق الأدب والباحثـين عـن مصـادر لتأريـخ حيـاة العـرب في حقبـة مـا قبـل الإسـلام. ويمثـل موتـه أيضـا دفنـا لخيـال مبـدع وعطـاء وفـير، وتبقـى معلقتـه الشـاهد الحـاضر عـلى مر العصـور، وهـو القائل:

وظلـــم ذوي القـــربى أشـــد مضاضـــة عـــلى المـــرء مـــن وقـــع الحســـام المهنـــد

شعره

لم يكن شعر طرفة بالكثير لأنه لم يعش طويلا، ولكنه حافل بذكر الأحداث المهمة التي وقعت خلال حياته. لقد ترك لنا طرفة ديوانا من الشعر أشهر ما فيه «المعلقة». ويحتوي الديوان على ٦٥٠ بيتا من الشعر تقريبا، منها ١٠٤ أبيات في المعلقة وحدها.

يرى بعض النقاد أن معلقة طرفة تسمو على جميع الشعر الجاهلي لأنها تحتوي على شعر إنساني فريد من نوعه لما فيه من العواصف المتضاربة والآراء في الحياة والموت. تقدم معلقته أيضا الكثير من الفوائد التاريخية كما صورت جانب مهم من الأخلاق الكريمة التي كان يتحلى بها العرب قبل الإسلام.

يعود سبب نظم معلقته، التي نظمت دفعة واحدة كما يرى البعض، إلى الظلم الذي لقيه من ابن عمه والتقصير والإيذاء والبخل الذي أدى إلى حرمانه من كافة حقوقه. وربما نظمت المعلقة في أوقات متفرقة فوصف الناقة الطويل ينم على أنه وليد التشرد ووصف اللهو والعبث يرجح أنه نظم قبل التشرد وقد يكون عتاب الشاعر لابن عمه قد نظم بعد الخلاف بينه وبين أخيه معبد. قال طرفة في معلقته:

لخولة أطلال ببرقة ثهمد — تلوح كباقي الوشم في ظاهر اليد
وقوفا بها صحبي علي مطيهم — يقولون لا تهلك أسى وتجلد
كأن حدوج المالكية غدوة — خلايا سفين بالنواصف من دد
عدولية أو من سفين ابن يامن — يجور بها الملاح طورا ويهتد
يشق حباب الماء حيزومها بها — كما قسم الترب المفايل باليد
ووجه كأن الشمس ألقت رداءها — عليه نقي اللون لم يتخدد
إلى أن تحامتني العشيرة كلها — وأفردت إفراد البعير المعبد
رأيت بني غبراء لا ينكرونني — ولا أهل هذاك الطرف الممدد
ألا أيهذا اللائمي أحضر الوغى — وأن أشهد اللذات هل أنت مخلد
أرى العيش كنزا ناقصا كل ليلة — وما تنقص الأيام والدهر ينفد
فما لي أراني وابن عمي مالكا — متى ادن منه ينأى عني ويبعد

يلــوم ومــا أدري عــلام يلومنــي كـما لامنـي في الحـي قـرط بـن معبـد
فلو شــاء ربي كنــت قيس بــن خالد ولـو شـاء ربي كنـت عمـرو بـن مرثـد
فأصبحــت ذا مــال كثــير وزارني بنــون كــرام سـادة لمسـود
أنــا الرجــل الــضرب الــذي تعرفونه خشــاش كــرأس الحيــة المتوقـد
لعمــرك مــا أمــري عــلي بغمــة نهـاري ولا ليـلي عـلى بسرمـد

وقال:

أرى المــوت لا يرعــي عــلى ذي قرابة وإن كان في الدنيـا عزيـزا بمقعـد
ولا خــير في خــير تــرى الــشر دونه ولا قائـل يأتيـك بعـد التلـدد
لعمــرك مــا الأيــام إلا معــارة فـما اسـطعت مـن معروفهـا فتـزود

طرفة وعمرو بن هند

ذكـر أن عمـر بـن هنـد خرج للصيـد ذات يوم مـع عبد عمرو بـن مرثد بن سـعد وكان سـيدا كريمـا جـوادا وكان متزوجـا مـن أخـت طرفة فشـكته في يوم مـن الأيـام إلى طرفـة فهجـاه. وخـلال رحلـة الصيـد هـذه اصطـاد الملـك حمارا وحشـيا وقـال لعبـد: انـزل فاذبحـه، فحـاول ذبحـه لكنـه أتعبه، فضحـك الملك وقـال: لقـد أبـصرك طرفة حيـث يقول:

ولا خــير فيــه غــير أن لــه غنــى وأن لــه كشـحا إذا قـام أهضمضـا
تظــل نســاء الحــي يعكفــن حوله يقلـن عسـيب مـن سرارة ملهـما

فقـال عبـد أبيـت اللعـن: مـا قاله فيك أشـد مـما قالـه في. قال الملـك وماذا قـال: قـال عبد قـال فيك:

فليــت لنــا مــكان الملــك عمــرو رغوثـا حـول قبتنـا تخـور
مــن الزمــرات أســبل قادماهــا وضرتهـا مركنـة درور
يشــاركنا لنــا رخــلان فيهــا وتعلوهـا الكبـاش فـما تنـور

فقـال الملـك: أبلـغ بـه الأمـر أن يقـول في مثـل هـذا الشـعر! فأمـر عاملـه بالبحريـن بقتـل طرفـة ولكـن بعـض جلسـائه قالـو لـه: إن قتلـت طرفـة هجـاك المتلمـس، وهـو حليـف طرفـة، وكان من الشـعراء الذين يخـشى الناس هجوهـم. فكـر الملـك قليـلا ثم أرسـل إلى طرفـة والمتلمس يدعوهـم إلى قصره

فجاؤوا إليه فكتب إلى عامله بالبحرين ليقتلهما وأعطاهما هدية من عنده وحملهما وأعطى كل منها رسالة ليسلماها لوالي البحرين. وعندما غادرا مجلسه نزلا في الحيرة، فقال المتلمس لطرفة: تعلمن والله إن ارتياح عمرو لي ولك لأمر عندي مريب، وإن انطلاقي بصحيفة لا أدري ما فيها لأمر أكثر ريبة عندي. فقال طرفة: إنك لتسيء الظن، وما نخاف من صحيفة إن كان فيها الذي وعدنا وإلا رجعنا. فأبى أن يجيبه إلى النظر فيها، ففك المتلمس ختمها ثم جاء إلى غلام من أهل الحيرة فقال له: أتقرأ يا غلام؟ قال: نعم. فأعطاه الصحيفة فقرأها فقال الغلام: أنت المتلمس؟ قال: نعم. قال الغلام: النجاة فقد أمر بقتلك، فأخذ الصحيفة فقذفها في البحيرة. فقال المتلمس لطرفة: إن الذي في كتابك مثل الذي في كتابي. فقال طرفة: لئن كان اجترأ عليك ما كان بالذي يجترئ علي، وأبى أن يطيعه، فسار المتلمس من فوره حتى أتى الشام. وخرج طرفة حتى أتى صاحب البحرين بكتابه، فقال له صاحب البحرين: إنك في حسب كريم وبيني وبين أهلك إخاء قديم وقد أمرت بقتلك فاهرب إذا خرجت من عندي فإن كتابك إن قرئ لم أجد بدا من قتلك، فأبى طرفة أن يفعل، فجعل شبان عبد القيس يدعونه ويسقونه الخمر حتى قتل.

الحكمة في شعر طرفة بن العبد

كان شعر طرفة كما وصفه الأدباء بأنه تفيض منه الحكمة فله العديد من الأبيات التي أصبحت مثلا ومن الحكم الشائعة التي يستخدمها العرب منذ أمد بعيد ولا زالت كذلك إلى يومنا هذا، مثل قوله:

وظلم ذوي القربى أشد مضاضة على المرء من وقع الحسام المهند

وقال عن الأصدقاء:

عن المرء لا تسـأل وسـل عـن قرينه فـكل قريـن بالمقـارن يقتـدي

وهناك المزيد من الأبيات على هذه الشاكلة، سنذكر منها البيتين التاليين:

سـتبدي لك الأيـام ما كنـت جاهلا ويأتيـك بالأخبـار مـن لم تـزود
ويأتيـك بالأخبـار مـن لم تبـع لـه بتاتـا ولم تـضرب لـه وقـت موعـد

وله أبيات تحث على فعل الخير، كقوله:

الخـير خـير وإن طـال الزمـان به والـشر أخبـث مـا أوعيـت مـن زاد

نهايته

تـوفي طرفـة، سـنة ٥٦٩، وهو فتى وكان شـعره هو الـذي أودى به، خصوصا تلـك الأبيـات التـي هجا فيها ملـك الحيرة، ولكنه تـرك ورائه سـيرة أدبية عطرة توجـت بالمعلقة التي خلدت اسـمه على مـر الزمان.

صناجة العرب

حياته ونسبه

اسمه ميمون بن قيس بن جندل بن بكر بن وائل بن ربيعة. لقب بالأعشى لأنه كان ضعيف البصر، ويقال له: أعشى قيس. ويكنى الأعشى: «أبا بصير»، تفاؤلا وهكذا كانت عادة العرب، فكانوا يطلقون كلمة سليم على المريض ليشجعوه على أن يتميز ويبدع في حياته. عاش الأعشى جل حياته في الجاهلية وأدرك الإسلام ولم يسلم، وأصيب بالعمى في أواخر حياته. ولد الأعشى في قرية منفوحة باليمامة سنة ٥٧٠م، وفيها داره وبها قبره.

شعره

يعتبر الأعشى من شعراء الطبقة الأولى، وهو أحد أبرز شعراء الأدب الجاهلي. لقد قدم قصائد رائعة، لكن كثير منها لم يصل إلينا، وهو صاحب المعلقة الشهيرة «ودع هريرة». وقد ورد في كتب الأدب والتاريخ أن محمد ابن سلام الجمحي قال: سألت يونس النحوي عن أشعر الناس؟ فقال: لا أومئ إلى رجل بعينه، ولكني أقول امرؤ القيس إذا غضب، والنابغة إذا رهب، وزهير إذا رغب، والأعشى إذا طرب. وشهادة يونس النحوي تشير إلى الحالات التي يبدع فيها هؤلاء الشعراء، فيأتي شعرهم تصويرا لإحساسهم ومشاعرهم والظروف التي كانوا يمرون بها، لذلك كان شعرهم صادقا ومعبرا عن زمانهم وحياتهم وكان له تأثير عظيم على حياة العرب وحشد الرجال في حالات الحرب.

كان الأعشى كثير الوفود على الملوك من العرب والفرس، فاستخدم بعض الألفاظ الفارسية كالصنج، وهي آلة موسيقية وسمي الأعشى بها. وهو غزير الشعر، وكان يغنى بشعره أيضا وهذا سبب آخر في تسميته بصناجة العرب.

وقيـل أن الأعـشى مـا مـدح أحـدا إلا رفعـه وما هجـا أحـدا إلا وضعه. وله قصـة مشـهورة ذكـرت كثـيرا في كتـب الأدب مـع المحلـق وبناتـه. فقـد كان المحلـق رجـلا فقـيرا وكان أبـا لثمانية بنات عوانـس لم يتقـدم لخطبتهن أحد، لمكانـة أبيهـن وفقـره. فقالت زوجة المحلـق لزوجها عليك باسـتضافة الأعشى علـه يشـيد بذكـرك فيتيـسر أمـر البنـات. ففعـل المحلـق، واسـتضاف الأعشى ونحـر لـه ناقـة مـع أنه كان رجـلا فقيرا ليس له سـواها. سـأل الأعشى المحلق عـن حالـه أثنـاء الطعـام فذكـر المحلـق حالـه وحـال بناتـه. فقـال الأعـشى كفيـت أمرهـن، وأنشـد قصيـدة طويلـة بليغـة في المحلـق في سـوق عكاظ في مكـة، وقـال فيها:

أرقــت ومــا هــذا الســهاد المؤرق ... ومـا بي مـن سـقم ومـا بي معشـق
نفـى الـذم عـن آل المحلــق جفنة ... كجــابية الشـيخ العراقـي تفهــق
تــرى القــوم فيهــا شــارعين وبينهم ... مـع القـوم ولـدان مـن النسـل دردق
لعمــري لقــد لاحــت عيــون كثيرة ... إلى ضـوء نــار باليفــاع تحـرق
ترى الجــود يجري ظاهــرا فوق وجهه ... كمــا زان مـتن الهندوانــي رونـق

ونلاحـظ في هـذه القصيـدة جزالـة المعـاني واللفـظ، واسـتخدم الأعشى فيها بعـض المفـردات الصعبـة مثـل تفهـق، وتعنـي تمتـلأ، وكلمـة دردق وتعنـي الأطفـال. وقـد ذكـر أن القصيـدة حركـت مشـاعر النـاس وغيرت حيـاة المحلق حيـث بـدأ النـاس يتوافدون على المحلـق لخطبة بناته، فما حـال عليهن الحول حتـى تزوجـن جميعا.

معلقة الأعشى

كتـب أبـو بصـير إحـدى المعلقـات، وهي مـا تعـرف بلامية الأعـشى أو ودع هريـرة. سـنذكر منهـا بعـض الأبيات.

ودع هريــرة إن الركــب مرتحــل ... وهــل تطيــق وداعـا أيهـا الرجـل
غــراء فرعــاء مصقــول عوارضهــا ... تمـشي الهوينـى كـما يمـشي الوجـي الوحـل
كأن مشــيتها مــن بيــت جارتهــا ... مــر الســحابة ، لا ريــث ولا عجــل

إلى أن قال:

وقـد غـدوت إلى الحانـوت يتبعني ... شـاو مشـل شـلول شلشـل شـول
في فتيـة كسـيوف الهند قـد علموا ... أن ليس يدفع عـن ذي الحيلة الحيل
ومسـتجيب تخـال الصنج يسـمعه ... إذا ترجـع فيـه القينـة الفضـل
لـئن منيـت بنـا عـن غـب معركة ... لم تلفنـا مـن دمـاء القـوم ننتفـل
نحـن الفـوارس يـوم العـين ضاحية ... جنبـي «فطيمـة « لا ميـل ولا عـزل
قالـوا الركـوب! فقلنـا تلـك عادتنا ... أو تنزلـون، فإنـا معـشر نـزل

الأعشى والإسلام

لقـد أدرك الأعـشى الإسـلام، وسـمع بدين الهـدى ونبي الرحمـة عليه أفضل الصـلاة وأتـم التسـليم، فأظهـر اهتمامـا بالديـن الجديـد وقـرر أن يتوجـه إلى رسـول اللـه ﷺ حتـى يسـلم بـين يديـه، وفعل ذلـك في أيـام صلـح الحديبية. وقـد أنشـد بهـذا قصيـدة قبـل أن يتوجـه إلى رسـول اللـه ﷺ، قـال فيها:

ألم تغتـمض عينـاك ليلـة أرمـدا ... وبـت كـما بـات السـليم المسهـدا
وما ذاك من عشـق النـساء وإنـما ... تناسـيت قبـل اليـوم خلـة مهـددا
ولكـن أرى الدهـر الذي هو خـائن ... إذا أصلحـت كفـاي عـاد فأفسـدا
شبـاب وشـيب وافتقـار وثـروة ... فللـه هـذا الدهـر كيـف تـرددا
فآليـت لا أرثي لهـا مـن كلالـة ... ولا مـن وجـى حتـى تلاقـي محمـدا
متى مـا تناخي عند باب ابن هاشـم ... تراحـى وتلقـى مـن فواضلـه نـدى
نبـي يـرى مـالا يـرون وذكـره ... أغـاد لعمـري في البـلاد وأنجـدا
لـه صدقـات مـا تغيـب ونائل ... وليـس عطـاء اليـوم يمنعـه غـدا

عندمـا بلـغ مكـة قابلـه أبـو سـفيان، قبـل أن يسـلم، فسـأله عـن وجهتـه، فقـال: أردت محمـدا (ﷺ). فقـال أبـو سـفيان: إنه يحرم عليكـم الخمر والزنا والقـمار، محـاولا ثنيـه عـن مقصده. وكان أبو سـفيان يعلم مـدى حب الأعشى لهـذه الأمـور. فقـال الأعـشى: أمـا الخمـر فقـد قضيـت منهـا وطـرا، وأمـا الزنـا فقـد تركنـي ولم أتركـه، وأمـا القمار فلعلي أصيـب منه عوضا. فقـرر الأعشى أن يرجـع إلى بيتـه ويرجـع إلى رسـول اللـه ﷺ في العـام القادم.

لقد بذل أبو سفيان قصارى جهده ليثنيه عن عزمه وحرض قومه على إرضاء الأعشى للرجوع خوفا من أن يسلم فينصر رسول الله ﷺ بشعره، فجمعوا له مائة ناقة حمراء، وأخذها الأعشى ورجع. وعندما اقترب من اليمامة سقط من على ناقته ودقت عنقه، فمات قبل أن يسلم حسبما ورد في كتب التاريخ، والله أعلم.

خاتمة

توفي الأعشى في قرية منفوحة التي ولد بها، وكانت وفاته سنة ٦٢٩ م/ ٧هـ. وقد ترك أرثا عظيما من الشعر بقي خالدا إلى يومنا هذا، ولكن لم يصلنا الكثير من شعره، لأن حركة التدوين التي اشتهرت به الدولة الإسلامية في العصر الأموي والعباسي لم تكن موجودة في العصر الجاهلي وفي بداية العصر الإسلامي لذا فقد اندثر كثير من الشعر له ولغيره من الشعراء.

عنترة العبسي

حياته ونسبه

هو عنترة بن عمرو بن شداد بن معاوية بن قراد العبسي. ولد عنترة سنة ٥٢٥ م، ويعتبر أحد أشهر فرسان العرب وأشعرهم، وعرف بشعر الفروسية والغزل العفيف لما قاله من قصائد بابنة عمه عبلة. ولد عنترة عبدا من أمة ،اسمها زبيبة، كان قد تزوجها أبوه. وقد حرره بعدما لمس منه فروسية لا نظير لها ولأن قبيلة عبس كانت تحارب وتنتصر بسيفه.

عنترة والعبودية

عاش عنترة بداية حياته عبدا ولم ينقذه منها سوى شجاعته وفروسيته وإقدامه ولولاها لعاش عبدا ومات على ذلك. قاسى عنترة مرارة الحرمان وشظف العيش خلال عبوديته ولكنه كان متمردا طامحا في مستقبل مشرق يتخلص به منه من نير العبودية. وواصل كفاحه حتى حصل على حريته نتيجة الغارات التي واجهتها عبس ودوره الكبير في الذود عن قبيلته.

وذات يوم أغارت قبيلة طي على عبس لما كان بينهما من ثارات وغزوات وتقاعس عنترة في الذود عن قبيلته في تلك الغزوة لما كان يشعر به من المهانة والنظرة الدونية له من قبيلته التي كانت لا تعامله إلا كعبد. وقد أثخنت قبيلة طي في عبس تلك الغزوة وضاقت عليها الأرض بما رحبت وأدرك والد عنترة حاجتهم الشديدة لسيفه وصاح به ليكر على طي لكن عنترة أجاب بأن العبد لا يصلح إلا للحلب والصر والرعي، فما كان من والده إلا أن وعده بالحرية قائلا: كر عليهم وأنت حر يا عنترة. عندها اندفع إليهم وقاتل بكل ما أوتي من قوة حتى مالت الكفة لصالح عبس بعد تلك المشاركة التي قلبت ظهر المجن على طي وحالف عبس النصر

بسيف عنترة. هكذا استطاع عنترة انتزاع حريته انتزاعا وأثبت أنه يستحقها أكثر من أي شخص في عبس بعد أن ذاد عن دياره وحمى حماها.

شعره

كانت عبلة السبب الأول في بروز ونبوغ عنترة وظهوره كفارس وشاعر نتيجة للتحديات التي عاشها عبدا، وكان يدرك تماما أن العبد في تلك البيئة القاسية لا يصلح إلا لرعي المواشي وخدمة أسياده، فكان لزاما عليه تحدي هذه البيئة ولا يمكنه التغلب عليها إلا بصفات حميدة تبجلها العرب وتجعل من صاحبها شخصا محمودا، بل ويحترمه الآخرون بسببها ويأتي على رأس هذه الصفات الشعر والفروسية.

لا يخفى على أحد أهمية الشعر في القبائل العربية حيث كان الجميع يحرصون على رضى الشعراء لكسب ودهم وتجنب هجائهم. وانتصر عنترة في هذا التحدي فأصبح بعد ذلك فارس عبس وشاعرها وسيفها البتار الذي زاد من زخم هيبتها بين القبائل.

يصنف عنترة ضمن شعراء الطبقة الأولى وقد كانت أغلب قصائده في الفروسية والغزل العفيف بابنة عمه عبلة، وهو القائل:

دعوني أوفي السيف في الحرب حقه وأشرب من كاس المنية صافيا
ومن قال إني سيد وابن سيد فسيفي وهذا الرمح عمي وخاليا

وقال في عبلة:

يا عبل أين من المنية مهربي إن كان ربي في السماء قضاها
وكتيبة لبستها بكتيبة شهباء باسلة يخاف رداها
فيها الكماة بنو الكماة كأنهم والخيل تعثر في الوغى بقناها
وصحابة شم الأنوف بعثتهم ليلا وقد مال الكرى بطلاها
وسريت في وعث الظلام أقودهم حتى رأيت الشمس زال ضحاها

وقال:

وأغـــض طـــرفي مـــا بـــدت لي جارتي حتـــى يـــواري جـــارتي مأواهـــا
إني امـــرؤ ســـمح الخليقـــة ماجـــد لا أتبـــع النفـــس اللجـــوج هواهـــا

معلقة عنترة

هـذه منقبـة أخـرى تضـاف إلى مناقـب عنـترة، إذ دون اسـمه بحـروف من ذهـب مـن خـلال معلقتـه «هـل غادر الشـعراء مـن مـتردم». وتعـد المعلقات العـشر التـي كتبهـا كل مـن: -عنترة بن شـداد وامـرؤ القيس وطرفـة ابن العبد وعمـرو بـن كلثـوم والحـارث بـن حلـزة ولبيـد بن ربيعـة وزهير بن أبي سـلمى والأعـشى وعبيـد بـن الأبـرص والنابغـة الذبياني- مـن أنفس وأفضل مـا قيل من الشـعر العـربي. ولمكانـة المعلقـات الأدبية واللغويـة اهتم العرب فيهـا اهتماما بالغـا مـن حيـث التدوين والـشرح والحفظ.

يخاطـب عنـترة في معلقتـه عبلـة ويصـور أيضـا فيهـا شـجاعته وإقدامـه في الحـروب. ومـن يقـرأ هذه المعلقة يستشـعر أيضـا الصفات الحميـدة التي كان يتمتـع بهـا مـن أخـلاق وفروسـية وتبـين شـاعريته وفصاحتـه وحسـن منطقه، حيـث يقـول فيها:

هـــل غـــادر الشـــعراء مـــن مـــتردم أم هـــل عرفـــت الـــدار بعـــد توهـــم
يـــا دار عبلـــة بالجـــواء تكلمـــي وعمـــي صباحـــا دار عبلـــة واســـلمي
يخـــبرك مـــن شـــهد الوقيعـــة أننـــي أغـــشى الوغـــى وأعـــف عنـــد المغنـــم
ومدجـــج كـــره الكـــماة نزالـــه لا ممعـــن هربـــا ولا مستســـلم
جـــادت لـــه كفـــي بعاجـــل طعنـــة بمثقـــف صـــدق الكعـــوب مقـــوم
فشـــككت بالرمـــح الأصـــم ثيابـــه ليـــس الكريـــم عـــلى القنـــا بمحـــرم

فروسيته

كان عنـترة مـن الفرسـان القلائل الذيـن خلد ذكرهم وأصبحـوا مضرب مثل للشـجاعة والإقـدام، حيـث لا يـكاد يخلـو حديـث عـن الفروسـية والشـجاعة

والإقدام إلا وذكر عنترة به. وكانت فروسيته كما ذكرنا هي السبيل إلى حريته ورفع شأنه بين قبيلته ومن ثم شعره الذي رفع شأنه بين العرب منذ ذلك الوقت وحتى يومنا هذا. وتظهر شجاعة عنترة الفارس في كثير من أبياته وقصائده، كقول:

ولقد ذكرتك والرماح نواهل ... مني وبيض الهند تقطر من دمي
فوددت تقبيل السيوف لأنها ... لمعت كبارق ثغرك المتبسم

وهو القائل:

حكم سيوفك في رقاب العذل ... واذا نزلت بدار ذل فارحل
وإذا بليت بظالم كن ظالما ... واذا لقيت ذوي الجهالة فاجهل
وإذا الجبان نهاك يوم كريهة ... خوفا عليك من ازدحام الجحفل
فاعص مقالته ولا تحفل بها ... واقدم إذا حق اللقا في الأول
واختر لنفسك منزلا تعلو به ... أو مت كريما تحت ظل القسطل
موت الفتى في عزة خير له ... من أن يبيت أسير طرف أكحل
إن كنت في عدد العبيد فهمتي ... فوق الثريا والسماك الأعزل
أو أنكرت فرسان عبس نسبتي ... فسنان رمحي والحسام يقر لي
لا تسقيني ماء الحياة بذلة ... بل فاسقني بالعز كاس الحنظل
ماء الحياة بذلة كجهنم ... وجهنم بالعز أطيب منزل

وقال:

لا يحمل الحقد من تعلو به الرتب ... ولا ينال العلا من طبعه الغضب
ومن يكن عبد قوم لا يخالفهم ... إذا جفوه ويسترضي إذا عتبوا
قد كنت فيما مضى أرعى جمالهم ... واليوم أحمي حماهم كلما نكبوا
لله در بني عبس لقد نسلو ... من الأكارم ما قد تنسل العرب
إن كنت تعلم يا نعمان أن يدي ... قصيرة عنك فالأيام تنقلب
اليوم تعلم يا نعمان أي فتى ... يلقى أخاك الذي قد غره العصب
فتى يخوض غمار الحرب مبتسما ... وينثني وسنان الرمح مختضب
إن سل صارمه سالت مضاربه ... وأشرق الجو وانشقت له الحجب
والخيل تشهد لي أني أكفكفه ... والطعن مثل شرار النار يلتهب
فالعمي لو كان في أجفانهم نظر ... والخرس لو كان في أفواههم خطبوا
والنقع يوم طراد الخيل يشهد لي ... والضرب والطعن والأقلام والكتب

خاتمة

مـات عنـترة، سـنة ٦٠١، بعـد أن بلـغ التسـعين مـن عمـره. وقيل أنـه مات إثـر سـهم مسـموم أصابه به أحد فرسـان طي ويلقب بالأسـد الرهيـص. ويقال أنـه لمـا أصابـه السـم وأدرك أنـه هالك لا محال أمر جيشـه بالتراجـع وبقي هو بـين الجيـش ومقاتـلي بنـي عبس ليبطئهـم عنهـم. وفي تلك الوقعة مـات عنترة وانسـحب مقاتلـو بني عبس.

السموأل

حياته ونسبه

هو السموأل بن عريض بن عادياء بن الحارث الأزدي وهو يهودي عربي. كان يملك حصنا منيعا اسمه الأبلق الذي بناه جده عادياء وقد ذكره في لاميته الشهيرة وهو من سكان خيبر، ولاسمه أكثر من معنى أحدهم الظل.

كان بيته بيت الشعر في اليهود فقد كان شاعرا وكذلك أبوه وأخوه سعية الذي كان شاعرا مجيدا. وكانت والدته من الغساسنة، من قبيلة الأزد. عاش السموأل في نهاية القرن الخامس والنصف الأول من القرن السادس الميلادي، وكان كثير التنقل بين خيبر وبين حصنه الأبلق في تيماء.

كان السموأل شاعرا وفارسا يضرب به المثل لوفائه، حتى قالت العرب (أوفى من السموأل!). وسطرت له قصة عجيبة في الوفاء والحفاظ على الأمانة مع الشاعر المشهور امرئ القيس حيث أصبح بعدها السموأل رمزا للأمانة والحفاظ على العهد في ميادين العرب.

وفاء السموأل

سطر السموأل قصة رائعة في الوفاء مع الشاعر امرئ القيس بن حجر الكندي وتناقل العرب قصته ورووها عنه على مدى قرون وضربوا له مثلا خاصا به. ومن خلال قصته هذه جعلوه رمزا للوفاء مثله مثل رموز العرب الأخرى كحاتم الطائي في الكرم وعنترة العبسي في الفروسية والأحنف بن قيس في الحلم ومسيلمة في الكذب وأبو رغال في الخيانة والغدر حيث صنفه العرب على أنه أخونهم. ومن عجيب ما فعله العرب قبل الإسلام أنهم كانوا يرجمون قبر أبو رغال واستمروا بذلك منذ أن غزا أبرهة الأشرم

مكـة وحتـى ظهور الإسـلام. وكان سـبب رجمهم له أن أبرهة وجنـده لم يكونوا عـلى درايـة بالطـرق المؤديـة إلى مكـة فعمل أبو رغـال كدليل للجيـش المتوجه لـردم الكعبـة المشرفة.

بـدأت قصـة السـموأل مـع امـرئ القيـس عندمـا قرر امـرؤ القيـس التوجه إلى قيـصر الـروم طلبـا لمـدد منـه لمواصلـة حربـه وثأره لمقتـل أبيه ملـك كندة. وقبـل التوجـه إلى قيـصر أودع امـرؤ القيـس دروعـا وسـلاحا لـدى السـموأل، حيـث كان ملـوك كنـدة يتوارثونهـا ملـكا عـن ملـك. وبعـد وفـاة امـرؤ القيس أرسـل ملـك كنـدة يطلـب السـلاح مـن السـموأل، فرفـض أن يعطـي السـلاح وأبلـغ الملـك أنه لن يسـلمها إلا لمسـتحقيها وهـم ورثة امرئ القيـس. وبعد أن بلـغ الملـك هـذا النبـأ عـاد وطالب في السـلاح مـرة أخـرى، لكن السـموأل أكد أنـه لـن يغـدر بذمتـه ولـن يخـون أمانته وسـيحافظ عـلى وفائه. عندهـا أيقن الملـك الكنـدي بأنـه لـن يحصـل عـلى السـلاح إلا بالحـرب فأرسـل الحـارث بن أبي شـمر، المعـروف بالأعـرج، إلى السـموأل في جيـش وطلب منه الأسـلحة مرة أخـرى وأبى السـموأل، حيـث كان متحصنـا بحصنـه المنيـع (الأبلـق).

حـاصر جنـود الملـك الكنـدي حصـن السـموأل دونمـا جـدوى وكان ابـن السـموأل في ذلـك الوقـت عائـد إلى الحصـن مـن رحلـة صيـد، فأخـذه رهينـة وسـاوم الملـك الكنـدي الشـاعر السـموأل عـلى أن يسـلمه السـلاح أو أن يقتـل ابنـه. عندهـا كان عـلى السـموأل الاختيـار مـا بـين أمريـن أحلاهـما أمـر مـن العلقـم وهـي أن يضحـي بوفائـه وعهـده أو أن يخـسر ابنـه. وبعـد تفكـر في الأمـر قـال السـموأل: مـا كنـت لأخـون عهـدي وأخفر ذمتـي فاصنع ما شـئت، فقـام جنـود الملـك الكنـدي بقتـل ابنه أمـام ناظريه. عـاد ملك كنـدة خائبا ولم يكسـب شـيئا سـوى المذمـة والرذيلـة التـي لحقـت بـه ولا زالـت تلاحقـه بعد موتـه إلى يومنـا هـذا. وبعـد ذلـك وفى السـموأل بعهـده وسـلم السـلاح لورثـة امـرئ القيـس عندهـا اعتـبره العـرب رمـزا للوفـاء، فقـال السـموأل في ذلـك:

وفيـت بـأدرع الكنـدي إني إذا مـا خـان أقـوام وفيـت
وأوصـى عاديـا بـأن لا تخـرب يـا سـموأل مـا بنيـت

بنـــى لي عاديـــا حصنـــا حصينـــا ومـــاء كلـــما شـــئت اشـــتفيت

وقال فيه الأعشى:

كـــن كالســـموأل إذ طاف الهـــمام به في جحفـــل كســـواد الليـــل جـــرار
بالأبلـــق الفـــرد مـــن تيـــماء منزلـــه حصـــن حصـــين وجـــار غـــير غـــدار
فســـامه خطتـــي خســـف فقـــال له قـــل مـــا بـــدا لـــك إني مانـــع جـــاري
فقـــال ثـــكل وغـــدر أنـــت بينهـــما فاخـــتر ومـــا فيهـــما حـــظ لمختـــار
فشـــك غـــير طويـــل ثـــم قـــال لـــه اقتـــل أســـيرك إني مانـــع جـــاري

شعره

يعـد السـموأل من شـعراء الطبقة الأولى مـن اليهود وهم ثمانية: السـموأل بـن عاديـاء، الربيـع بـن الحقيـق ، كعب بـن الأشرف، شريح بن عمران، سـعية بـن عريـض أخـو السـموأل، أبو قيـس بن رفاعـة، أبو الذيـال، ودرهـم بن زيد، وذلـك وفقـا لتصنيـف طبقـات فحول الشـعراء لابن سـلام الجمحـي (١٣٩هـ - ٢٣٢هـ). ولـه ديـوان شـعر صغـير وأشـهر قصيـدة له هـي اللامية التي سـطر بهـا معـان رائعـة وجميلة قـل ما وجـد مثيلها، وفيهـا يقول:

إذا المرء لم يدنس مـــن اللـــؤم عرضه فـــكـــل رداء يـــرتـــديـــه جـــمـــيـــل
وإن هـــو لم يحمل عـــلى النفس ضيمها فليـــس إلـــى حـــسـن الثنـــاء سبيـل
تعـيـرنـا أنـــا قـلـيـل عـديـدنـا فـقـلـت لـهـا إن الـكـرام قـلـيـل
ومـا قـل مـن كانت بقاياه مثلنا شـبـاب تـسـامـى للعـلـى وكـهـول
ومـــا ضـرنـــا أنـــا قـلـيـل وجـارنـا عـزيـز وجـــار الأكـثـريـن ذلـيـــل
لـنـا جـبـل يحتـله مـــن نجيـره مـنـيـع يـــرد الـطـرف وهـــو كـلـيـل
رســا أصله تحت الثـــرى وسما به إلـــى النجم فـرع لا يـنـال طـويـل
هـو الأبلق الفـــرد الـذي شاع ذكـره يـعـــز عـلـى مـــن رامـــه ويـطـول
وإنـــا لـقـوم لا نـــرى الـقـتـل سبة إذا مـــا رأتـــه عـامـــر وسـلـــول
يـقـرب حـــب الـمـوت آجـالـنـا لـنـا وتـكـرهـه آجـالـهـم فـتـطـــول
ومـا مـات مـنـا سيـد حـتـف أنـفـه ولا طـــل مـنـا حـيـث كـــان قـتـيـل
تسيل على حـد الظبات نفوسنـــا وليسـت على غير الظبات تسيـل
صفونا فلم نكدر وأخلص سرنـا إنـــاث أطـابـت حـمـلـنـا وفـحـول
علونا إلـى خـيـر الظـهـور وحـطـنـا لـوقـت إلـى خـيـر الـبـطـون نـزول
فنحـن كماء المـزن مـــا فـي نصابنـا كـهـام ولا فـيـنـا يـعـد بـخـيـل

وننكر إن شئنا على الناس قولهم ... ولا ينكرون القول حين نقول
إذا سيد منا خلا قام سيد ... قؤول لما قال الكرام فعول
وما أخمدت نار لنا دون طار ... قولا ذمنا في النازلين نزيل
وأيامنا مشهورة في عدونا ... لها غرر معلومة وحجول
وأسيافنا في كل شرق ومغرب ... بها من قراع الدارعين فلول
معودة ألا تسل نصالها ... فتغمد حتى يستباح قبيل
سلي إن جهلت الناس عنا وعنهم ... فليس سواء عالم وجهول
فإن بني الريان قطب لقومهم ... تدور رحاهم حولهم وتجول

خاتمة

كانت حياة السموأل حافلة بالوفاء والعبر إلى أن توفي سنة ٥٦٠م، تاركا وراءه قصة جميلة في الوفاء وقصائد رائعة تناقلها العرب جيلا بعد جيل.

عمرو بن كلثوم

حياته ونسبه

اسمه عمرو بن كلثوم بن مالك بن عتاب بن سعد بن زهير بن جشم بن بكر بن حبيب بن تغلب بن وائل. ولد في الجاهلية ومات فيها ولم يذكر تاريخ دقيق لولادته، لكنه ولد في شمالي جزيرة العرب في ديار ربيعة وتجول في الشام والعراق ونجد، وعاش عمرا مديدا. كان عزيز النفس وساد تغلب وهو فتى لا يتجاوز عمره الخامسة عشر. هو أحد شعراء العصر الجاهلي المعروفين وهو من شعراء الطبقة الأولى. أما أمه فهي ليلى ابنة المهلهل، الزير سالم، ووصفت أنها أبية وعزيزة النفس أيضا.

شعره

هو صاحب إحدى المعلقات التي تميزت بسهولة الألفاظ ودقة الوصف والمبالغة في الفخر ويعتبرها البعض من أجود ما قيل في المدح، أي مدح القبيلة. ولم يرو عنه الكثير من الشعر، غير المعلقة، بل رويت عنه بعض الأبيات والقصائد القصيرة ولكنه أبدع في المعلقة التي كانت كافية لتدوين اسمه بين شعراء الطبقة الأولى، فهناك دواوين من الشعر لم يكتب لها النجاح فتلاشت وكأنها لم تكن. ورب قصيدة قصيرة لا تتجاوز بضعة أبيات خلدت صاحبها زمنا طويلا. قال عمرو في إحدى القصائد التي رويت عنه غير المعلقة:

ألا أبلغ بني جشم بن بكر وتغلب كلها نبأ جلالا
بأن الماجد البطل ابن عمرو غداة نطاع قد صدق القتالا
كتيبته ململمة رداح إذا يرمونها تنبي النبالا
جزى الله الأغر يزيد خيرا ولقاه المسرة والجمالا

المعلقة

تسمى بمعلقة عمرو بن كلثوم وهي غنية بالفوائد التاريخية والاجتماعية وتنبض بالحماسة والشعور بالعزة. تتكون معلقة عمرو من نحو ألف بيت ولكن لم ينقل منها الرواة سوى مائة بيت. أنشد قسما منها في حضرة عمرو بن هند، ملك الحيرة، عندما انتدبت تغلب الشاعر عمرو للذود عنها حين احتكمت تغلب وبكر إلى ملك الحيرة، لحل خلاف نشب بينها. وكان ملك الحيرة شديد الاعتداد بنفسه وقد غضب حين وجد أن الشاعر لا يقيم له ورنا كبيرا فعمد الملك إلى حيلة كي يذله بها، فأرسل إلى عمرو بن كلثوم، فيما بعد، يطلب منه أن يزوره وأن يأتي بأمه ليلى معه ففعل. وقيل أيضا أن الملك كان جالسا في يوم من الأيام مع حاشيته فسألهم: هل ترون في العرب امرأة تستنكف من خدمة أمي؟ قالوا: ليلى بنت المهلهل. فسأل، لماذا؟ قالوا لأنها بنت مهلهل ربيعة وعمها كليب ملك العرب وزوجها كلثوم كان سيد قومه، وابنها الآن سيد قومه. لذا فقد طلب ملك الحيرة من أمه أن تجعل ليلى تقوم بخدمتها بطريقة غير مباشرة كأن تطلب منها أن تصنع لها شيئا.

وفي أثناء الزيارة طلبت أم الملك من ليلى أن تناولها طبقا فقالت ليلى: لتقم صاحبة الحاجة إلى حاجتها. لكن أم الملك كررت الطلب وألحت عليها فصاحت ليلى «واذلاه - يا لتغلب». سمعها ابنها عمرو بن كلثوم فوثب إلى سيف معلق قربه فضرب به رأس عمرو بن هند، ملك الحيرة. وبعد مقتل الملك نظم الشاعر القسم الثاني من المعلقة. وقيل إن بني تغلب، كبارا وصغارا، كانوا يحفظونها ويتغنون بها. وهنا بعض الأبيات من المعلقة:

ألا هبي بصحنك فاصبحينا ولا تبقي خمور الأندرينا
مشعشعة كأن الحص فيها إذا ما الماء خالطها سخينا
وكأس قد شربت ببعلبك وأخرى في دمشق وقاصرينا
وإنا سوف تدركنا المنايا مقدرة لنا ومقدرينا
قفي قبل التفرق يا ظعينا نخبرك اليقين وتخبرينا

قفـي نسـألك هـل أحدثـت صرما لوشـك البـين أم خنـت الأمينـا
بيـوم كريهـة ضربـا وطعنـا أقـر بـه مواليـك العيونـا
وأن غـدا وأن اليـوم رهـن وبعـد غـد بمـا لا تعلمينـا
أبـا هنـد فـلا تعجـل علينـا وأنظـرنا نخبـرك اليقينـا
بأنـا نـورد الـرايات بيضـا ونصـدرهن حمـرا قـد روينـا
وأيـام لنـا غـر طـوال عصينـا الملـك فيهـا أن ندينـا
تركـن الخيـل عاكفـة عليـه مقلـدة أعنتهـا صفونـا
متـى ننقـل إلى قـوم رحانـا يكونـوا في اللقـاء لهـا طحينـا
يكـون ثقالهـا شرقـي نجـد ولهـوتها قضـاعة أجمعينـا
نزلتـم منـزل الأضيـاف منـا فأعجلنـا القـرى أن تشتمونـا
ورثنـا المجـد قـد علمـت معـد نطـاعن دونـه حـتى يبينـا
بشبـان يـرون القـتل مجـدا وشيـب في الحـروب مجربينـا
بـأي مشيئـة عمـرو بـن هنـد تطيـع بنـا الوشـاة وتزدرينـا
تهـددنـا وتوعـدنا رويـدا متـى كـنا لأمـك مقتوينـا
فـإن قناتنـا يـا عمـرو أعيـت عـلى الأعـداء قبلـك أن تلينـا
ورثنـا مجـد علقمـة بـن سيـف أبـاح لنـا حصـون المجـد دينـا
ورثـت مهلهـلا والخـير منـه زهيـرا نعـم ذخـر الذاخرينـا
ومنـا قبلـه السـاعي كليـب فـأي المجـد إلا قـد ولينـا
متـى نعقـد قرينتنـا بحبـل تجـذ الحبـل أو تقـص القرينـا
ونوجـد نحـن أمنعهـم ذمـارا وأوفاهـم إذا عقـدوا يمينـا
فصالـوا صـولة فيمـن يليهـم وصلنـا صـولة فيمـن يلينـا
فـآبوا بالنـهاب وبالسبايـا وأبـنا بالملـوك مصفدينـا
علـى آثارنـا بيـض حسـان نحـاذر أن تقسـم أو تهونـا
أخـذن عـلى بعولتهـن عهـدا إذا لاقـوا كتـائب معلمينـا
ليستلبـن أفراسـا وبيضـا وأسـرى في الحديـد مقرنينـا
يقتـن جيـادنا ويقلـن لستـم بعولتنـا إذا لـم تمنعونـا
وقـد علـم القبـائل مـن معـد إذا قبـب بأبطحـها بنينـا
بأنـا المطعمـون إذا قدرنـا وأنـا المهلكـون إذا ابتلينـا
وأنـا المانعـون لمـا أردنـا وأنـا النـازلون بحيـث شينـا
ونـشرب إن وردنـا المـاء صفـوا ويشـرب غيرنـا كـدرا وطينـا
إذا بلـغ الفطـام لنـا صبـي تخـر لـه الجبـابر ساجدينـا

الهجرة إلى الشام

كسائر القبائل العربية قديما، لم تستقر قبيلة تغلب بمكان واحد بل انتقلت إلى عدة أماكن ما بين الشام والعراق ونجد. ولقد درات حروب طاحنة بين قبائل ربيعة أشهرها حرب البسوس، بين بكر بن وائل وتغلب بن وائل. وقد هاجرت هذه القبائل إلى بوادي الشام والعراق منذ ما قبل الإسلام ولا تزال هناك منطقة جنوب تركيا تسمى «ديار بكر» نسبة إلى البكريين وهناك بعض المناطق شمال العراق، في حوض الفرات، قرب الموصل، تسمى بديار ربيعة.

وذكرت مصادر تاريخية أخرى أن قبيلة ربيعة هاجرت نحو الفرات بعد فتكة عمرو بن كلثوم بملك الحيرة، عمرو بن هند. وقيل أيضا فتكات الجاهلية ثلاث، فتكة البراض بعروة، وفتكة الحارث بن ظالم بخالد بن جعفر، وفتكة عمرو بن كلثوم بعمرو بن هند ملك المناذرة، فتك به وقتله في دار ملكه وانتهب رحله وخزائنه وانصرف بمن معه إلى خارج الحيرة ولم يصب أحد من أصحابه بأذى. وبعد هذه الفتكة توجه بقبيلته إلى شمال الجزيرة الفراتية.

خاتمة

كانت حياة عمر بن كلثوم عزيزة أبية وخلد سيرته وسيرة قبيلته بمعلقته الشهيرة التي طالما رددها الشعراء والأدباء في المحافل الأدبية. قيل إنه توفي سنة ٦٠٠ للميلاد وقيل ٥٨٤ للميلاد أي ٣٩ قبل الهجرة.

الصعاليك

نتحدث في هذا القسم عن شعراء ثاروا على واقعهم الاجتماعي وهجروا الديار واختاروا الصحراء والجوع والتشرد في سبيل نصرة قضيتهم والأخذ بأيدي الفقراء ومساعدة المحتاجين. إنهم الصعاليك الذين احتلوا مكانة بارزة في التاريخ العربي ومرتبة مرموقة في الشعر والأدب وكان بعضهم من الشعراء المجيدين. عاش معظمهم في القرن الأخير من العصر الجاهلي وكانوا شعراء مبدعين وفرسانا امتازوا بعزة النفس والرأفة على الفقراء. خرجوا إلى الصحراء لأنهم كانوا يرون أن الأغنياء قد ظلموا الفقراء ببخلهم وعدم مساعدتهم وعملوا على سلب الأموال من الأغنياء وتوزيعها على الفقراء.

لقد ظهرت حركة الصعلكة لأسباب مختلفة، فبعضهم تبرأت منهم قبائلهم وطردتهم لأسباب معينة، ومنهم من كان أسود البشرة لأن أمه حبشية ولم يعترف بهم آباؤهم ومنهم من تصعلك نتيجة للظروف الاقتصادية التي كانت تسود العصر الجاهلي.

وقد ساهم تأخر حركة التدوين في اللغة العربية في فقدان جل شعرهم ولم يصل إلينا سوى قصائد بعضهم خصوصا عروة بن الورد والشنفرى والتي جمعت بديوان لكل منهم. أمتاز الصعاليك بالإخلاص لقضيتهم وتأقلموا مع حياة الصحاري حتى قيل إنهم أصبحوا أعدى من الخيل، أي أنهم كانوا يمتازون بسرعة الجري، وقيل إن الخيل لا تدركهم وهم يركضون على أقدامهم.

عروة بن الورد

هو عروة بن الورد بن زيد العبسي، من قبيلة عبس، ولد في الجاهلية وهو أحد شعرائها وفرسانها، وكان من وجهاء قومه ولكنه امتهن الصعلكة نتيجة الظروف الاجتماعية والاقتصادية في ذلك الحين. وكان عروة أكثر الصعاليك شهرة وأجلهم قدرا ولقب بأبي الصعاليك. عاش حياة حرة كريمة وكان كارها لما يراه من قومه من احتقار للفقراء والتعالي عليهم لذلك ثار على ذلك الواقع محاولا تغييره بكل ما أوتي من قوة.

شعره

حمل شعر الصعاليك سمات مختلفة فقد أهملوا المقدمات الطللية وهي وصف الأطلال التي كانت تسود الشعر الجاهلي آنذاك واستبدلوها بالحديث عن الفروسية، وكانوا يرفضون التقاليد الفنية في الشعر مثلما رفضوا التقاليد الاجتماعية وكانوا يصفون معاركهم وغاراتهم وشجاعتهم وأصدقائهم من خلال قصائدهم؛ أي يقصون من خلال قصائدهم القصص. اتسم أيضا شعرهم بالواقعية والدقة في التعابير التي يستخدمونها. وكانوا أيضا يتحلون بصفات حميدة مثل الشجاعة والكرم والصدق.

يلقب عروة بن الورد «بأبي الصعاليك» لأنه كان يجمعهم حوله ويهتم بشؤونهم، وهو شاعر وافر الشهرة وصاحب عدد كبير من القصائد، سنذكر منها بعض الأبيات. قال عروة واصفا أصدقائه الصعاليك:

ولله صعلوك صحيفة وجهه كضوء شهاب القابس المتنور
مطلا على اعدائه يزجرونه بساحتهم زجر المنيح المشهر
وإن بعدوا لا يأمنون اقترابه تشوف أهل الغائب المنتظر
فذلك إن يلق المنية يلقها حميدا، وإن يستغن يوما فأجدر

وقال مخاطبا زوجته:

أقـلي عـلي اللـوم يـا ابنـة منذر ونامـي، فـإن لم تشـتهي النـوم فاسـهري
ذريـنـي ونفـسي أم حسـان، إننـي بهـا قبـل أن لا أملـك البيـع مشـتري
أحاديـث تبقـى والفتـى غـير خالد إذا هـو أمـسى هامـة فـوق صـير

تقلب الحياة في العصر الجاهلي

كانـت القبائـل العربيـة تعـاني الفقـر عندمـا تجـدب الأرض ولكـن حياتهم تتحسـن عندمـا يعـود المطـر وتنبـت المراعـي. وكان وقـع الفقـر أشـد عـلى الفقـراء الذيـن لا يسـتطيعون تأمـين قوتهـم حتـى في وقـت الرخـاء ويـزداد فقرهـم وبؤسـهم في مواسـم القحـط والجفاف. لـذا كان عروة يكـره الفقر لأن النـاس اعتـادوا ازدراء الفقـراء واحتقارهـم، وسـعى إلى الغنى لمسـاعدة الفقراء ولأن النـاس كانـوا يجلـون الأغنيـاء أيضـا. وكان عـروة يخاطـر بحياته في سـبيل تأمـين قـوت عائلتـه والمحتاجـين، فقال:

ذريـنـي أطـوف في البـلاد لعلنـي أخليـك أو أغنيـك عـن سـوء محـضري
فـإن فـاز سـهم للمنيـة لم أكـن جزوعـا وهـل عـن ذاك مـن متأخـر
وإن فـاز سـهمي كفكم عـن مقاعد لكـم خلـف أدبـار البيـوت ومنظـر

وقال أيضا:

دعـيني للغنـى أسعـى فـإني رأيـت النـاس شرهـم الفقيـر
وأبعـدهم وأهـونهم عليهـم وإن أمـسى لـه حسـب وخيـر
ويلفـى ذو الغنـى ولـه جـلال يـكاد فـؤاد صـاحبه يـطير

مكارم الاخلاق

قـال عبـد الملـك بـن مروان: مـن زعم أن حاتما كان أسـمح النـاس فقد ظلم عـروة بـن الـورد. وقـال معاوية بـن أبي سـفيان، رضي الله عنه وأرضـاه، لو كان لعـروة بـن الـورد ولـد لأحببت أن أتـزوج إليهم. وقـال الحطيئـة في جوابه على

سؤال عمر بن الخطاب، رضي الله عنه وأرضاه، كيف كانت حروبكم؟ قال: كنا نأتم في الحرب بشعر عروة بن الورد.

وورد في كتاب الأغاني لأبي فرج الأصفهاني أنه إذا أصاب الناس قحط وفقر وتركوا في دارهم المريض والكبير والضعيف، فإن عروة يجمع هؤلاء ويعمل على مساعدتهم حتى إذا تحسنت صحتهم التحقوا به للغزو ثم يقسم ما يحصلون عليه بينهم سواسية. وبعد أن تزول الشدة يعطي كل واحد منهم نصيبه من الغنائم ثم يلتحقوا بأهلهم الذين تخلوا عنهم فيما قبل؛ ولذلك سمي بعروة الصعاليك أيضا. وهناك الكثير من الأبيات تشير إلى كرمه وحسن خلقه، كقوله:

سلي الطارق المعتر يا أم مالك إذا ما أتاني بين قدري ومجزري
أيسفر وجهي أنه أول القرى وأبذل معروفي له دون منكري

وقال أيضا:

فراشي فراش الضيف والبيت بيته ولم يلهني عنه غزال مقنع
أحدثه إن الحديث من القرى وتعلم نفسي أنه سوف يهجع

عروة وسلمى

سبى عروة امرأة من كنانة في إحدى غزواته، تسمى سلمى، وتكنى أم وهب، فأعتقها وتزوجها وعاشت معه أكثر من عشر سنين وكان له منها أولاد. وكان يظن أنها تحبه كثيرا ولا تقدم عليه أحدا من البشر. وقالت له ذات يوم: لو حججت بي فأمر على أهلي وأراهم فحج بها، وأتى مكة ثم المدينة، وكان قومها يخالطون بني النضير فأتوهم عندما كان عروة بديارهم مع سلمى. قالت سلمى لقومها إنه سيخرج بها قبل أن ينتهي الشهر الحرام فطلبت منهم أن يقولوا له أنهم يستحيون أن تكون امرأة منهم معروفة النسب سبية. وقالت افتدوني منه، فإنه لا يرى أني أفارقه ولا أختار عليه أحدا.

فجاءوا إليه وسقوه الشراب حتى ثمل، ثم قالوا له: فادنا بصاحبتنا فإنها وسيطة النسب ومعروفة بيننا وإن هذا علينا سبة. وإذا ما صارت إلينا فإننا ننكحك مرة أخرى. وافق عروة بشرط أن يخيروها بينه وبين أهلها، وكان لا يشك في أنها ستختاره. فلما سألوها، اختارت أهلها وقالت، يا عروة: أما إني أقول فيك الحق وإن فارقتك: والله ما أعلم امرأة من العرب ألقت سترها على بعل خير منك، وأغض طرفا، وأقل فحشا وأجود يدا، وما مر علي يوم إلا والموت أحب إلي من الحياة بين قومك، لأني لم أكن أشاء أن أسمع امرأة من قومك تقول: قالت أمة عروة كذا وفعلت أمة عروة كذا. فارجع راشدا إلى ولدك وأحسن إليهم. وقال في ذلك أبيات كثير هذه بعض منها:

تحن إلى سلمى بحر بلادها وأنت عليها بالملا كنت أقدرا
تحل بواد من كراء مضلة تحاول سلمى أن أهاب وأحصرا
وكيف ترجيها وقد حيل دونها وقد جاورت حيا بتيمن منكرا

خاتمة

توفي عروة سنة ٣٠ ق.هـ/٥٩٤م، وترك خلفه أرثا أدبيا كبيرا وسيرة حميدة خصوصا في مساعدة المحتاجين والفقراء.

الشنفرى

هـو عمـرو بـن مالـك الأزدي ويسـمى أيضـا ثابـت بـن أوس الأزدي ولقب بالشـنفرى لغلظـة شـفتيه وقيـل لحـدة في طبعـه، وكان واحـدا مـن أفتـك الصعاليـك وأشـهرهم، وعـززت شـهرته قصيدتـه الموسـومة بلاميـة العـرب. لم تذكـر المصـادر التاريخيـة لماذا سـميت بلامية العرب، ولكن ربمـا وصفت بذلك لأنهـا تعـبر عـن اللسـان العـربي خـير تعبير.

حياته

اختلفـت الروايـات حـول نشـأة وحيـاة الشـنفرى، فقيـل إنه نشـأ في قبيلة فهـم العدنانيـة، وهـي قبيلـة أمـه، وذلـك بعـد أن قتلـت سـلامان بـن مفـرج والـده فأقسـم أن يقتـل مائـة شـخص مـن بني سـلامان. وقـد قتل منهم تسـع وتسـعون شـخصا وقيـل أوفى المائـة. وقيـل إن قبيلـة سـلامان سـبت الشـنفرى وهـو غـلام، فأوكلـه الذي سـباه رعاية غنمـه وكان يرعاها مع ابنـة ذاك الرجل، فقـال لهـا الشـنفرى ذات يـوم، اغسـلي رأسي يـا أخيـة، فلطمتـه. وخـرج والـد البنـت إلى الشـنفرى فوجـده ينشـد أبياتـا عـما فعلـت الفتـاة، قائلا:

ألا هــل أتى فتيــان قومــي جماعــة بمـا لطمـت كـف الفتـاة هجينهـا
ولــو علمــت تلــك الفتاة مناســبي ونسـبتها ظلـت تقـاصر دونهـا
أليــس أبي خــير الأواس وغيرهــا وأمــي ابنــة الخيريــن لــو تعلمينهـا
إذا مــا أروم الــود بينــي وبينهــا يـؤم بيـاض الوجـه منـي يمينهـا

عندهـا سـأله الرجـل عـن نسـبه فقـال الشـنفرى: أنـا أخـو الحـارث بـن ربيعـة. قـال الرجـل: لـولا أني أخـاف أن يقتلنـي بنـو سـلامان لأنكحتـك ابنتي. قـال الشـنفرى: إن قتلـوك، لأقتلـن بك منهم مائـة رجل، فخلى سـبيله، وأنكحه ابنتـه. وبعـد هـذا الـزواج قتلـت بنـو سـلامان الرجـل، فبـدأ الشـنفرى يـوفي بوعده.

وعلى اختلاف الروايات فإنها تجمع على أن الشنفرى هو أحد الصعاليك وهو من قتل تسع وتسعين أو مائة من بني سلامان. وكان يسكن البراري مع صعاليك آخرين مثل عروة وتأبط شرا والسليك بن السلكة وغيرهم. وكان من فتاك العرب وعدائيهم، وقيل إن الخيل لا تدركه لأنه كان أسرع منها في العدو، وأصبح مضربا للمثل في السرعة، فقيل: أعدى من الشنفرى!

وهناك الكثير من الأبيات في لاميته تتحدث عن حياة البراري وتبين أن الشنفرى كان يحبها واختار وحوش البادية ليكونوا أهلا له بدلا من أهله الذي كان يعيش بينهم. قال في ذلك:

ولي دونكم أهلون سيد عملس وأرقط زهلول وعرفاء جيأل
هم الأهل لا مستودع السر ذائع لديهم ولا الجاني بما جر يخذل

ويقصد الشنفرى من خلال هذين البيتين أن هذه الوحوش أحق بتسمية الأهل من كثير من الناس وأنهم هم الذين يحفظون سره. و«سيد» هي اسم من أسماء الذئب، والعملس هو الخفيف أو القوي والسريع، والأرقط هو النمر أو الملون بأبيض وأسود، والزهلول هو الأملس، وعرفاء جيأل هي أنثى الضبع طويلة العرف. ويقول إن هؤلاء الأهل يحفظون السر ولا يفشونه وأنهم لا يسلمون صاحبهم إلى خصمه إذا ما ارتكب جناية.

شعره – لامية العرب

يعتبر بعض الأدباء أن لامية الشنفرى موازية للمعلقات من حيث البناء والثراء اللغوي وتستحق أن تكون منهن. وقد جمعت للشنفرى أشعار متفرقة، من غير اللامية ولكن تبقى لامية العرب هي الأفضل والأجود بين قصائده وهي من أجود ما قيل من الشعر العربي. تضم اللامية نحوا من سبعين بيتا، وربما سميت بلامية العرب لأنها كتبت بلغة الصحراء وتعبر عن اللسان العربي وحياة الصحراء ووحوشها.

أبدى الكثير من الأدباء والشعراء القدامى والمعاصرين إعجابهم باللامية، وكان عروة بن الورد من المعجبين بها. وقال بعض الرواة أن عمر بن الخطاب، رضي الله عنه وأرضاه، قال: علموا أولادكم لامية العرب، فإنها تعلمهم مكارم الأخلاق. والآن سنستعرض بعض أبياتها.

أقيموا بني أمي صدور مطيكم ... فإني إلى قوم سواكم لأميل
فقد حمت الحاجات والليل مقمر ... وشدت لطيات مطايا وأرحل
وفي الأرض منأى للكريم عن الأذى ... وفيها لمن خاف القلى متعزل
لعمرك ما بالأرض ضيق على أمرئ ... سرى راغبا أو راهبا وهو يعقل
ولي دونكم أهلون سيد عملس ... وأرقط زهلول وعرفاء جيأل
هم الأهل لا مستودع السر ذائع ... لديهم ولا الجاني بما جر يخذل
وكل أبي باسل غير أنني ... إذا عرضت أولى الطرائد أبسل
وإن مدت الأيدي إلى الزاد لم أكن ... بأعجلهم إذ أجشع القوم أعجل
وما ذاك إلا بسطة عن تفضل ... عليهم وكان الأفضل المتفضل
وإني كفاني فقد من ليس جازيا ... بحسنى ولا في قربه متعلل
ثلاثة أصحاب فؤاد مشيع ... وأبيض إصليت وصفراء عيطل
هتوف من الملس المتون يزينها ... رصائع قد نيطت إليها ومحمل
إذا زل عنها السهم حنت كأنها ... رزأة ثكلى ترن وتعول
فأيمت نسوانا وأيتمت ولدة ... وعدت كما أبدأت والليل أليل
وأصبح عني بالغميصاء جالسا ... فريقان مسؤول وآخر يسأل
فقالوا لقد هرت بليل كلابنا ... فقلنا أذئب عس أم عس فرعل
وخرق كظهر الترس قفر قطعته ... بعاملتين ظهره ليس يعمل
وألحقت أولاه بأخراه موفيا ... على قنة أقعي مرارا وأمثل

وقال في اللامية أيضا:

وليلة نحس يصطلي القوس ربها ... وأقطعه اللاتي بها يتنبل
دعست على غطش وبغش وصحبتي ... سعار وإرزيز ووجر وأفكل

يقول الشنفرى في البيت الأول: رب ليلة شديدة البرد (نحس)، في الصحراء يحرق (يصطلي) صاحبها قوسه وسهامه ليستدفئ بها، رغم حاجته لهذه السهام لحماية نفسه. وفي البيت الثاني يقول إنه عادة ما يمشي في ظروف قاسية جدا تتدرج بين الظلمة (غطش)، والمطر (بغش)، ويصاحبه في رحلته

هـذه الجـوع (سـعار)، والـبرد (إرزيـز)، والخوف (وجـر) وأحيانا يصـل إلى حد الارتعـاش (أفـكل) من شـدة البرد.

نهايته

كـما ذكرنـا في هـذه المقالـة، لقـد قتـل الشـنفرى 99 رجـلا وقيـل مائـة من بنـي سـلامان. وعندمـا أثخـن فيهـم نصبـوا لـه كمينـا، وأقعـدوا لـه رجـالا من بنـي الرمـد مـن غامـد ليرصـدوه، فأغـار الشـنفرى عليهم ليـلا وعندمـا دنا من المـاء ليـشرب وثبـوا عليـه فأمسـكوا بـه وربطـوه إلى شـجرة. وقالوا له أنشـدنا؛ أي قـل لنـا بعـض الشـعر، فقال: النشـيد على المـسرة، فأصبحت مثـلا بعد ذلك الحـين. وقالـوا له أيـن نقـبرك؟ فقال:

لا تقــبروني إن قــبري محــرم عليكــم ولكــن أبــشري أم عامــر
إذا احتملــت رأسي وفي الــرأس أكثري وغــودر عنــد الملتقــى ثــم ســائري
هنالــك لا أرجــو حيــاة تــسرني ســمير الليــالي مبســلا بالجرائــر

تـوفي نحـو ٧٠ ق.هـ/ ٥٢٥ م. وتـرك وراءه بعـض القصائـد وتوجـت سـيرته باللاميـة، التـي لـو لم يقـل غيرهـا لكفـت. وحافظـت اللامية على ذكره وسـيرته عـلى مـدى قـرون، ولا تـزال كذلـك إلى يومنـا هذا.

تأبط شرا

هـو ثابـت بـن جابر بن سـفيان بـن عدي بن كعـب بن حرب، أحد شـعراء الجاهليـة وعدائيهـم، وهـو مـن الصعاليـك مـن أهـل تهامـة. قيـل إنـه لقـب بتأبـط شرا لأن أمـه قالـت لـه يومـا: كل إخوتـك يأتـوني بـشيء إذا ذهبـوا، إلا أنـت! قـال سـآتيك الليلـة بـشيء، ومـضى فاصطاد أفاعـي ثم أتى بهـن في جراب متأبطـا لـه، فألقـاه بـين يديهـا، ففتحتـه فتسـاعين في بيتهـا فوثبـت وخرجـت، فقـال لهـا نسـاء الحـي: ماذا أتاك بـه ثابت؟ فقالـت: أتاني بأفـاع. فقلن: وكيف حملهـا؟ قالـت: وضعهـا في جـراب وتأبطهـا، فقلن: لقـد تأبـط شرا! فلزمه هذا اللقـب منـذ ذلـك الحـين. وقيـل إنـه لقب بذلـك لأنه يتأبـط سـيفه، أي يضعه تحـت إبطـه كلـما خـرج للغـزو. فقالـت أمـه ذات مـرة: تأبـط شرا، أي تأبـط سـيفه، فلقـب بهـذا اللقـب بعدها.

حياته

أمـه هـي أميمـة الفهميـة، مـن بنـي القـين، تزوجهـا أبو كبـير الهـذلي وكان لهـا سـتة أبنـاء، أحدهـم تأبـط شرا. عاصر الشـنفرى وعروة بن الـورد وتصعلك معهـم. وذكـرت لـه قصص ومغامرات كثيرة تتأرجح بـين الحقيقة والخيال وربما كان بعضهـا مـن الخرافـة، أيضـا. وكانـت معظـم غاراتـه عـلى بنـي صاهلة من قبيلـة هذيـل وبنـي نفاثـة مـن قبيلـة كنانـة. وهو أيضـا أحـد أسرع الصعاليك في العـدو وهـو خـال الشـنفرى. عـاش حيـاة مشـابهة لأصحابـه الآخريـن مـن الصعاليـك وكان مثلهـم يأنس بحياة البراري وبردها وحرها وظبائها ووحوشـها.

شعره

كان للصعاليك بصمات واضحة في الشعر العربي وترجمت بعض قصائدهم إلى لغات أخرى لأهمية وجاذبية هذه القصائد، خصوصا لامية العرب للشنفرى التي تحدثنا عنها سابقا. كانت قصائدهم تروي قصصا مختلفة تتدرج بين الشجاعة والإقدام وعزة النفس والصبر ومساعدة المحتاجين والكرم والحماسة والفخر والرثاء إضافة إلى وصف الحياة المجتمعية في حقبة ما قبل الإسلام. قال تأبط شرا في رثاء ابن أخته الشنفرى:

على الشنفرى ساري الغمام فرائح ... غزير الكلى أو صيب الماء باكر
عليك جداء مثل يومك بالحيا ... وقد رعفت مني السيوف البواتر
ويومك يوم العيكتين وعطفة ... عطفت وقد مس القلوب الحناجر
تجيل سلاح الموت فيهم كأنهم ... لشوكتك الحدى ضئين نوافر
وطعنة خلس قد طعنت مرشة ... لها نفذ تضل فيها المسابر

وله قصائد أخرى مميزة منها قصيدته التي أوردها الأديب طه حسين ضمن أفضل مائة قصيدة في الشعر العربي، حيث يقول فيها:

يا عيد ما لك من شوق وإيراق ... ومر طيف على الأهوال طراق
يسري على الأين والحيات محتفيا ... نفسي فداؤك من سار على ساق
إني إذا خلة ضنت بنائلها ... وأمسكت بضعيف الوصل أحذاق
نجوت منها نجائي من بجيلة إذ ... ألقيت ليلة خبت الرهط أرواقي
ليلة صاحوا وأغروا بي سراعهم ... بالعيكتين لدى معدى ابن براق
كأنما حثحثوا حصا قوادمه ... أو أم خشف بذي شث وطباق
لا شيء أسرع مني ليس ذا عذر ... وذا جناح بجنب الريد خفاق
عاذلتي إن بعض اللوم معنفة ... وهل متاع وإن أبقيته باق
إني زعيم لئن لم تتركوا عذلي ... أن يسأل الحي عني أهل آفاق
أن يسأل القوم عني أهل معرفة ... فلا يخبرهم عن ثابت لاق
سدد خلالك من مال تجمعه ... حتى تلاقي الذي كل امرىء لاق
لتقرعن علي السن من ندم ... إذا تذكرت يوما بعض أخلاقي

وقال:

ولا أتمنى الشر والشر تاركي ولكن متى أحمل على الشر أركب
ولست بمفراح إذا الدهر سرني ولا جازع من صرفه المتقلب

ومن قصائده:

ألا عجب الفتيان من أم مالك تقول أراك اليوم أشعث أغبرا
تبوعا لآثار السرية بعدما رأيتك براق المفارق أيسرا
فقلت لها يومان، يوم إقامة أهز به غصنا من البان أخضرا
ويوم أهز السيف في جيد أغيد له نسوة لم تلق مثلي أنكرا
يخفن عليه وهو ينزع نفسه لقد كنت أباء الظلامة قسورا
وقد صحت في آثار حوم كأنها عذارى عقيل أو بكارة حميرا

سرعته في العدو

يذكر أن عمرو بن أبي عمرو الشيباني قد نزل يوما على حي يسمى «بسة» من فهم، إخوة بني عدوان من قيس، ثم سألهم عن خبر تأبط شرا. قال بعضهم: لما تسأل عنه، أتريد أن تصبح لصا؟ قال: لا ولكن أريد أن أسمع شيئا عن أخبار هؤلاء العدائين، فأحدث بها. قالوا نحدثك بخبره إذاً: كان تأبط شرا أعدى ذي رجلين وذي ساقين وذي عينين وكان إذا جاع لم تقم له قائمة حتى ينظر إلى الظباء فيختار أسمنها، ثم ينطلق نحوها فلا يفوته حتى يأخذ ذلك الظبي ويذبحه بسيفه ثم يشويه ويأكله.

نهايته

خرج بعض الصعاليك ليلا لغزو بني نفاثة، من قبيلة كنانة، وكانوا بإمرة عامر بن الأخنس الفهمي، وكان من بينهم تأبط شرا. وعندما وصلوا حي بني نفاثة انتظروا أن ينام الحي فبينما هم كذلك شعر بهم أحد رعاة بني نفاثة فأخبر قومه. شعر تأبط شرا بأن القوم اكتشفوا خطتهم، فقال لمن معه: «أتيتم والله، أنا والله أسمع حطيط وتر قوس، إني لأسمعه يا قوم النجاة النجاة!». لم يصغي له بقية الصعاليك، فتركهم وتراجع عن الغزو في

تلـك الليلـة، فخـرج القـوم ليلا وقتلوا كل مـن جاء مع تأبـط شرا ولم ينج منهم أحد سـواه.

كان عامـر مـن بـين القتـلى، فأقسـم تأبـط شرا أن يثـأر لـه وخـرج في نفـر ممـن معـه وتلاقوا ببعـض بني هذيل بين جبلين فقتلوا شـيخا وعجـوزا وحازوا جاريتـين وإبـلا وهـرب غـلام لهم فأصر تأبـط شرا على أن يتبع أثـر الغلام، فلما رآه الغـلام ولم يكـن معـه إلا قوسـه وسـهم واحـد فأمهلـه حتـى إذا دنـا منـه أطلـق سـهمه نحـوه فاسـتقر في صدر تأبـط شرا، لكنـه لم يمت مبـاشرة وواصل تأبـط شرا السـير حتـى أدرك الغـلام فقتله، وماتـا كليهما، نحـو ٥٣٠ م/ ٦٥ قبل الهجرة.

الفصل الثاني

صدر الإسلام

هـو الزمـن الممتـد منذ بعثـة النبي ﷺ حتـى نهاية زمن الخلافة الراشـدة التـي انتهـت بمقتـل أمـير المؤمنـين عـلي بـن أبي طالـب رضي اللـه تعـالى عنـه وأرضـاه سـنة ٤٠ للهجـرة. ويعـد شـعر صدر الإسـلام امتـدادا للشـعر الجاهلي لأن شـعراء نهايـة العـصر الجاهـلي هـم أنفسـهم شـعراء بدايـة صـدر الإسـلام وكانوا يسـمون بالشـعراء المخضرمين لشـهودهم الجاهلية والإسـلام، ولكن طرأ عـلى الشـعر والشـعراء تغيـرات مهمة تتعلـق بتهذيـب الأخـلاق والتركيز على الألفـاظ والمعاني السـامية.

سـاهم دخـول الإسـلام في تغيـير وتهذيـب البيئـة الشـعرية فقـد تحولـت البيئـة الجافـة والقاسـية إلى بيئـة لينـة سـهلة بفضـل ديـن اللـه تعـالى الـذي رقـق ألفـاظ الشـعراء وكذلـك تعليمات الإسـلام السـامية التي جعلت الشـعراء ينتقـون أطايـب الكلام ويتجنبـون الفاحش من القول خاصة مـا كان منتشرا في الجاهليـة كوصـف الخمر والنسـاء والتـي كانت أبرز مواضيع الشـعر الجاهلي. عـلاوة عـلى ذلـك، تأثر الشـعراء في هذه الفـترة بالقرآن الكريم والسـنة النبوية الشريفة.

لقـد اتسـم شـعراء صـدر الإسـلام بالـورع والتقـوى ومخافـة اللـه سـبحانه وكانـوا يركـزون عـلى مـا فيـه صالح وصـلاح المسـلمين فبدلا مـن مـدح القبيلة مـدح الشـعراء الإسـلام وكانـوا يعـبرون عن فخرهـم بالانتماء إلى الإسـلام وليس انتماؤهـم للقبيلـة كـما كان سـائدا في الجاهليـة. اشـتهر في فـترة صدر الإسـلام العديـد مـن الشـعراء مثـل حسـان بـن ثابـت وكعب بـن زهير والخنسـاء رضي اللـه تعـالى عنهـم جميعا.

البراء بن مالك و كعب بن مالك

البراء

هـو الـبراء بـن مالـك بـن النظـر، أخـو أنس بـن مالك خـادم الرسـول ﷺ. كان مقداما جريئا أذهـل الأصدقـاء قبـل الأعـداء ببسـالته حتى قـال عمر بن الخطـاب رضي اللـه عنـه : لا تسـتعملوا البراء على جيش من جيوش المسـلمين، فإنـه مهلكـة مـن المهالـك. فقد قصد الفـاروق، رضي اللـه عنـه، أن الجيش ربما لا يطيـق مـدى إقدامـه وشـجاعته، وربما يلحـق الضرر بجيش المسـلمين نتيجة هـذا الإقـدام الكبـير. وأخـبره الرسـول ﷺ بأنه مسـتجاب الدعـوة، وكان أيضا يتمنـى أن يمـوت شـهيدا مـما زاد في إقدامـه على قتـال الكفـار والمرتدين.

معركة اليمامة

ظهـرت حركـة الـردة بعـد وفـاة الرسـول ﷺ فارتـدت عـن الإسـلام عـدة قبائـل مـن العـرب. وكان أخطـر هـؤلاء المرتديـن مسـيلمة الكـذاب، كـذاب اليمامـة. وفي تلـك الأثنـاء جهـز أبـو بكـر الصديـق، رضي اللـه عنـه، جيشـا بقيـادة خالـد بـن الوليـد لقتـال مسـيلمة وكان الـبراء بـن مالـك أحـد أبطـال هـذه المعركـة. كان جيـش مسـيلمة كبير وتجـاوز عديده الأربعـين ألفا وجيش المسـلمين آنـذاك لم يبلـغ ربـع هـذا العـدد. التحـم الجيشـان واسـتعر القتـال وثبـت الجيشـان خـلال المعركة، ونـادى خالد بـن الوليد الـبراء أن تكلم. فصاح الـبراء بكلـمات مؤثـرة قائـلا: يا أهـل المدينة، لا مدينـة لكم اليوم، إنمـا هو الله والجنـة. استشـعر المسـلمون الخطـر فقاتلـوا بـكل مـا أوتـوا مـن قـوة، وهـزم جيـش مسـيلمة وتحصـن في حديقـة ذات أسـوار عالية. أحاط جيش المسـلمين بالحديقـة، وظـن المرتـدون أنهـم في حديقتهـم آمنـون. وقدر خالـد أن الحرب سـتطول، لأن المرتديـن متحصنـين داخـل الحديقـة ولكـن إقـدام الـبراء حسـم الموقـف لصالح المسـلمين.

نظر البراء رضي الله عنه إلى حال المرتدين وهم متحصنون داخل الحديقة، ونظر إلى المسلمين الذين لم يتمكنوا من اقتحامها بعد، فخطرت في ذهنه فكرة، فتقدم إلى الصحابة وقال: ألقوني عليهم، ثم رفعوه على ترس، ورفعوا الترس بالرماح، ثم قذفوا البراء من فوق سور الحديقة، فهبط عليهم من فوقهم يصيح الله أكبر.

ذعر المقاتلون من هول المفاجأة وبدأ البراء يعمل فيهم السيف، فلم يزل يقاتلهم ويتقدم نحو باب الحديقة حتى تمكن من فتحه. ودخل المسلمون الحديقة وصاروا يقتلون المرتدين وقتلوا مسيلمة، وقضي على جيشه .

وبعد أن تم النصر للمسلمين تفقدوا البراء، فإذا به أكثر من ثمانين جرحا بين ضربة سيف وطعنة رمح. وقد أشرف خالد بنفسه على تمريض البراء. كان البراء يتمنى الشهادة ولكن شاء الله أن يواصل وطأته على الكفار حتى استشهد في معركة تستر، رحمه الله.

معركة تستر واستشهاده

بدأ الفرس يحضرون لمعركة جديدة بعد القادسية، وحشدوا عددا كبيرا من الرجال من أهل الأهواز والفرس ليواجهوا المسلمين، وكتب الخليفة عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، إلى سعد بن أبي وقاص في الكوفة ليرسل إلى الأهواز جيشا، وكتب إلى أبي موسى الأشعري بالبصرة ليرسل إلى الأهواز جيشا على أن يجعل أمير الجند سهيل بن عدي وليكون معه البراء بن مالك. التقى الجيشان، وبدأت المعركة وقتل البراء وحده أكثر من مئة من جنود الفرس. وعندما حمي الوطيس قال بعض المسلمين للبراء: ادع الله أن يهزمهم، وكانوا يعلمون أنه مجاب الدعوة. فقال البراء: اللهم امنحنا أكنافهم اللهم اهزمهم وانصرنا عليهم وألحقني اليوم بنبيك. وما زالت المعركة على أشدها والقتلى يتساقطون من الطرفين، وأجيبت دعوة البراء رضي الله تعالى عنه وكان، رحمه الله، أحد شهداء هذه المعركة.

كعب بن مالك

هو الصحابي الجليل كعب بن مالك الأنصاري السلمي. إنه أحد شعراء وفرسان الإسلام وهو أحد الثلاثة الذي تاب الله عليم بعد تخلفهم عن غزوة تبوك، وروى الحديث عن رسول الله ﷺ. أسلم عندما سمع بدين الهدى وبايع النبي ﷺ في بيعة العقبة الثانية، ولما هاجر الرسول ﷺ وأصحابه آخى بينه وبين طلحة بن عبيد الله.

الثلاثة الذين خلفوا

كان الجو شديد الحرارة عندما وقعت غزوة تبوك، فتخلف عن الغزو مع رسول الله ﷺ ثلاثة رجال هم: كعب بن مالك و مرارة بن ربيع و هلال ابن أبي أمية. وكان كعب يفكر باللحاق بالجيش بعد أن خرج ولكنه لم يفعل حتى عاد الرسول ﷺ ومن معه. ففكر كيف يلقى رسول الله ﷺ أي باختلاق الأعذار والحجج أم بقول الصدق، ثم قرر أن يقول الصدق مهما كانت النتيجة.

عندما وصل الرسول ﷺ جاء المخلفون ومنهم المنافقون وقد جاوز عددهم الثمانين، فقال كعب: سلمت على الرسول ﷺ فتبسم تبسم المغضب. فقال: ما خلفك؟ قلت: يا رسول الله والله لو جلست إلى غيرك من أهل الدنيا، لخرجت من سخطه بعذر، ولقد أعطيت جدلا! والله ما كان لي عذر حين تخلفت عنك. فقال رسول الله ﷺ: أما هذا فقد صدق، فقم حتى يقضي الله فيك.

فخرج من عند النبي ولم يكلمه الناس ولم يتعاملوا معه لأن الرسول ﷺ أمر بمقاطعة المخلفين. وبعد أربعين ليلة جاءه أحد الصحابة وقال له أن الرسول ﷺ يأمرك أنت و مرارة وهلال أن تعتزلوا نسائكم، فقال كعب: أأطلقها؟ قال لا ولكن اعتزلها. فأمر زوجته أن تلحق بأهلها.

وذات يوم، ذهب كعب إلى السوق، فإذا برجل نصراني من الشام يسأل عنه، وعندما قابله أعطاه النصراني رسالة من ملك غسان، فقرأها كعب ووجد فيها: أما بعد، فإنه قد بلغني أن صاحبك محمدا جفاك، ولم يجعلك الله بدار مذلة أو هوان، فالحق بنا نواسيك. وبعد أن قرأ كعب الرسالة قال في نفسه: والله إن هذه أيضا من الفتنة والابتلاء، ثم ألقى بالرسالة في النار.

وبعد هذا الصبر الذي استمر خمسين يوما جاء الفرج، عندما نزلت الآية الكريمة (وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ) التوبة/ ١١٨.

وعندما جاء البشير سمع كعب صوته قبل أن يراه قائلا: أبشر يا كعب، فخر ساجدا لله. وقال له البشير: أبشر قد تاب الله عليك. فخلع كعب ثوبه وكان يرتدي عباءه. يقول كعب: والله لا أملك إلا هي وألبستها له. ثم استلفت ثوبان وسرت في طرق المدينة بعد الفجر فكنت أمشي في المدينة يتلقاني الناس أفواجا يهنئونني ودخلت المسجد وكان الصحابة حول النبي ﷺ فلما دخلت على النبي ﷺ سلمت عليه وهو يبرق وجهه وكان رسول الله ﷺ إذا ابتسم استنار وجهه كأنه القمر. وقال النبي ﷺ أبشر يا كعب بخير يوم طلع عليك منذ ولدتك أمك، لقد تاب الله عليك. قال كعب سأتصدق بمالي في سبيل الله لكن الرسول ﷺ أمره أن يبقي بعض ماله.

وكان كعب بعد ذلك يقول: ما تعمدت منذ ذكرت ذلك لرسول الله ﷺ شيئا من الكذب، وإني لأرجو أن يحفظني الله تعالى بقية عمري. وقال أيضا: والله ما أنعم الله علي من نعمة قط بعد إذ هداني للإسلام أعظم في نفسي من صدقي أمام رسول الله ﷺ أن لا أكون كذبته، فأهلك كما هلك الذين كذبوا، فقد قال الله تعالى: (سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ

لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِن تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ) التوبة/ ٩٥-٩٦ .

وواصل كعب جهاده في سبيل الله، ولم يتخلف عن حرب أبدا، فحارب المرتدين في عهد أبي بكر الصديق، رضي الله عنه، وشارك في الفتوحات الإسلامية في عهد الفاروق، وكذلك في خلافة عثمان وعلي وأول خلافة معاوية، رضي الله عنهم جميعا.

شعره

كان كعب من الشعراء المميزين وأبدع في وصف الحروب والمعارك وكانت أبيات شعره أشد وطئا على المشركين والمرتدين من وقع السيوف. ويذكر أن قبيلة دوس أسلمت خوفا من قوله:

تخيرها ولو نطقت لقالت قواطعهن دوسا أو ثقيفا

وقال ابن سيرين: كان كعب أحد شعراء الرسول ﷺ الثلاثة الذين يردون عنه الأذى وينصرون الإسلام والمسلمين، وهم: كعب بن مالك وحسان بن ثابت وعبد الله بن رواحة، فكان كعب يخوفهم بالحرب، وكان حسان يهجوهم ويذكرهم عيوبهم، وكان عبد الله يعيرهم بالكفر.

وروى ابن هشام أنه لما قال كعب، رضي الله عنه:

جـاءت سـخينة كي تغالـب ربهـا فليغلـبن مغـالب الغـلاب

أن رسول الله ﷺ قال له: لقد شكرك الله تعالى يا كعب على قولك هذا.

وقال في عثمان بن عفان، رضي الله عنه:

فكـف يديـه ثـم أغلـق بابـه وأيقـن أن اللـه ليـس بغافـل
وقـال لمـن في داره لا تقاتلـوا عفـا اللـه عـن كل امـرء لم يقاتـل
فكيـف رأيـت اللـه صـب عليهم العـداوة والبغضـاء بعـد التواصـل
وكيـف رأيـت الخـير أدبـر عنهـم وولى كإدبـار النعـام الجوافـل

وقال في وصف الحرب

قضينـا مـن تهامـة كل ريـب وخيـبر ثـم أجمعنـا السـيوفا
نخيرهـا ولـو نطقـت لقالـت قواطعهـن دوسـا أو ثقيفـا
فلسـت لحاضـن إن لم تروهـا بسـاحة داركـم منكـم ألوفـا
وننتـزع العـروش ببطـن وج وتصبـح دوركـم منكـم خلوفـا
رئيسـهم النبـي وكان صلبـا نقـي القلـب مصطـبرا عزوفـا
رشـيد الأمـر ذو حكـم وعلـم وحلـم لم يكـن نزقـا خفيفـا
نطيـع نبينـا ونطيـع ربـا هـو الرحمـن كان بنـا رؤوفـا
فـإن تلقـوا إلينـا السـلم نقبـل ونجعلكـم لنـا عضـدا وريفـا
وإن تأبـوا نجاهدكـم ونصـبر ولا يـك أمرنـا رعشـا ضعيفـا
نجالـد مـا بقينـا أو تنيبـوا إلى الإسـلام إذعانـا مضيفـا
نجاهـد لا نبـالي مـن لقينـا أأهلكنـا التـلاد أم الطريفـا
وكـم مـن معـشر ألبـوا علينـا صميـم الجـذم منهـم والحليفـا
أتونـا لا يـرون لهـم كفـاء فجدعنـا المسـامع والأنوفـا
بـكل مهنـد لـين صقيـل يسـوقهم بهـا سـوقا عنيفـا
لأمـر اللـه والإسـلام حتـى يقـوم الديـن معتـدلا حنيفـا
وتنـسى الـلات والعـزى وود ونسـلبها القلائـد والشـنوفا
فأمسـوا قـد أقـروا واطمأنـوا ومـن لا يمتنـع يقبـل خسـوفا

وقال أيضا:

وقــد عربــت بيــض خفــاف كأنها مقاييــس يزهيهــا لعينيــك شــاهر
فكــب أبــو جهــل صريعــا لوجهــه وعتبــة قــد غادرنــه وهــو عاثــر
وشــيبة والتيمــي غــادرن في الوغى ومــا منهــا إلا بــذي العــرش كــافر
فأمســوا وقــود النــار في مســتقرها وكل كفــور في جهنــم صائــر
تلظــى عليهــم وهي قد شــب حميها بزبــر الحديــد والحجــارة ســاجر
وكان رسول اللــه قــد قــال اقبلوا فولــوا وقالــوا إنمــا أنــت ســاحر

مواقف مشهودة

روى ابـن هشـام بعـض المواقـف لكعـب في غـزوة أحـد حيـث دعـاه النبي ﷺ وألبسـه ملابسـه التـي يلبسـها في الحـرب، ولبـس النبـي ﷺ ملابـس كعـب. وقـال كعـب: لمـا انكشـفنا يـوم أحـد وكنـت أول من عـرف رسـول الله ﷺ وبـشرت بـه المؤمنـين حيا سـويا، وأنـا في الشـعب، وقـد جرح سبعـة عـشر جرحـا. وكان المشركـون يوجهـون إلى كعـب السـهام ظنـا منهـم أنـه رسـول اللـه ﷺ.

تـوفي، رضي اللـه عنه، بالشـام خلال خلافة معاوية سـنة ٥٠هـ، وفقا لرواية الواقـدي وقيـل سـنة ٥٣ هـ، وعمره آنـذاك يناهز ٧٧ عاما.

النعمان بن مقرن ولبيد بن ربيعة

نسب النعمان وحياته

هو النعمان بن عمرو بن مقرن المزني. ولد في الجاهلية واستشهد في معركة نهاوند وهو أمير مزينة وشهد الأحزاب وبيعة الرضوان مع رسول الله ﷺ.

إسلام النعمان بن مقرن

كان يوم إسلامه يوما مشهودا، إذ أسلم معه عشرة أخوة له ومعهم أربعمائة فارس بين يدي رسول الله ﷺ. ولقد شهد النعمان الغزوات كلها مع الرسول ﷺ وكان له ولقبيلته دورا بارزا في محاربة المرتدين. ويذكر أنه قال لقومه في الليلة التي سبقت توجهه إلى رسول الله ﷺ: يا قوم والله ما علمنا عن محمد إلا خيرا، ولا سمعنا من دعوته إلا مرحمة وإحسانا وعدلا، فما بالنا نبطئ عنه، والناس إليه يسرعون؟! ثم أردف قائلا: أما أنا فقد عزمت على أن أغدو عليه إذا أصبحت، فمن شاء منكم أن يكون معي فليتجهز. ولقد فرحت المدينة فرحا كبيرا إذ لم يسبق لبيت من بيوت العرب أن أسلم منه أحد عشر أخا من أب واحد ومعهم أربع مائة فارس. ونزل فيهم قوله تعالى :{وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَاتٍ عِندَ اللَّهِ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ أَلَا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ سَيُدْخِلُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ) التوبة/٩٩.

فتح الفتوح

كان النعمان بطل معركة نهاوند أو فتح الفتوح كما أطلق عليها بعض المؤرخين، لأن الدين الإسلامي انساح بعدها في بلاد فارس والمشرق. لقد

نـدب أمـير المؤمنـين عمـر بن الخطـاب رضي اللـه عنه وأرضـاه النعـمان لهذه المهمـة، حـين استشـار أصحابه وطلب منهم أن يرشـحوا له قائـدا لهذه المعركة الفاصلـة. فقالـوا: يـا أمـير المؤمنـين، أنـت أعـرف برجالك. أعـاد عليهم السـؤال ولم يذكـروا لـه أحـدا، ثـم قـال لأولين رجـلا يكـون أول الأسـنة إذا لقيهـا. قالوا: مـن يـا أمـير المؤمنـين؟ قـال: النعـمان بـن مقـرن. قالـوا: هـو لهـا. فكتـب عمر رضي اللـه عنـه إلى النعـمان: «لقـد بلغنـي أن جموعـا مـن الأعاجـم كثـيرة قـد جمعـوا لكـم بمدينـة نهاونـد، فـإذا أتـاك كتـابي هـذا فـسر بأمـر اللـه وبنـصر اللـه بمـن معـك مـن المسـلمين، ولا توطئهـم وعـرا فتؤذيهـم ولا تمنعهـم حقـا فتكفرهـم ولا تدخلهـم غيضـة، فـإن رجـلا مـن المسـلمين أحـب إلي مـن مائـة ألـف دينـار، والسـلام عليكم».

فسـار النعـمان بالجيـش والتقـى الجمعـان، ودارت المعركـة حتـى ألجـأ المسلمون الفـرس إلى التحصـن، فحاصروهم وطال الحصـار عدة أسابيع وفكر المسـلمون في طريقـة يسـتخرجون فيها الفرس مـن حصونهم لمناجزتهـم، فبعثوا إليهـم خيـلا تقاتلهـم بقيـادة القعقـاع بـن عمـرو التميمـي حتـى إذا خرجـوا مـن خنادقهـم تراجـع القعقـاع فطمعـوا وظنـوا أن المسـلمين قـد هزمـوا، وكان النعـمان قد أمـر جيش المسـلمين ألا يقاتـل حتى يأذن لهـم وخاطبهم قائلا: إني مكـبر ثـلاث، فـإذا كـبرت الثالثة فـإني حامـل فاحملـوا، وإن قتلت فالأمـير بعدي حذيفـة بـن اليـمان فإن قتـل ففلان، حتـى عد سـبعة آخرهم المغيرة بن شـعبة، ثـم دعـا ربه قائـلا: اللهم أعزز دينـك، وانصر عبادك، واجعل النعمان أول شـهيد اليـوم، اللهـم إني أسـألك أن تقـر عينـي بفتـح يكـون فيـه عـز الإسـلام واقبضنـي شـهيدا. فبـكى النـاس من شـدة التأثر ودارت المعركـة على مشـارف نهاوند، وقاد النعـمان المعركـة بشـجاعة نـادرة وظفـر بالشـهادة التـي كان يتمناهـا، وتحقـق الفتـح العظيـم الـذي طلبـه مـن اللـه، وقبـل أن تفـارق روحـه الطاهرة جسـده سـأل أحدهـم عـن المعركة، فأخبر النعـمان أن النصر كان حليفـه، فقال النعمان: الحمـد للـه، اكتبـوا بهـذا إلى عمـر، ثم صعـدت روحـه إلى بارئها.

وقد صدق حدس أمير المؤمنين فقد كان النعمان أول الأسنة، رحمه الله ورضي عنه. أخذ نعيم بن مقرن- أخو النعمان- الراية وسلمها لحذيفة، فكتم أمر استشهاده حتى تنتهي المعركة. وبعد انتهاء المعركة وانتصار المسلمين ذهب البشير وأخبر أمير المؤمنين عمر قائلا: فتح الله عليك، وأعظم الفتح، واستشهد الأمير، فقال عمر: إنا لله وإنا إليه راجعون، واعتلى المنبر ونعى إلى المسلمين النعمان بن مقرن أمير نهاوند وشهيدها.

روايته لحديث النبي صلى الله عليه وسلم

لقد روى النعمان بعض الأحاديث عن رسول الله ﷺ مثل: «سباب المسلم فسوق وقتاله كفر». وعن معقل بن يسار، عن النعمان بن مقرن أنه قال: «شهدت رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا لم يقاتل أول النهار، انتظر حتى تزول الشمس» صححه الترمذي. وروى أحاديث أخرى. وقال عبدالله ابن مسعود رضي الله عنه: «إن للإيمان بيوتا، وإن للنفاق بيوتا، وإن من بيوت الإيمان بيت ابن مقرن».

لبيد، نسبه وحياته

هو لبيد بن ربيعة بن مالك بن جعفر العامري. ولد في الجاهلية لذلك فهو من الشعراء المخضرمين. وهو أحد الشعراء الفرسان الأشراف في الجاهلية، عمه ملاعب الأسنة وأبوه ربيعة بن مالك المكنى، بربيعة المقترن، لكرمه. اسلم لبيد عندما وفد على رسول الله ﷺ لذلك فهو صحابي جليل، وترك الشعر بعد اعتناقه الإسلام ولم يقل إلا بيتا واحدا، وهو:

ما عاتب المرء الكريم كنفسه والمرء يصلحه القرين الصالح

استقر لبيد في الكوفة بعد إسلامه إلى أن وافته المنية عن سن يناهز السابعة والخمسون بعد المائة، كما ذكر ابن قتيبة.

عـاش لبيـد تسـعين سـنة في الجاهليـة ومـا تبقـى في الإسـلام. لقـد أرسـل حاكـم الكوفـة يومـا في طلـب لبيد وسـأله أن يلقـي بعضا من شـعره فقرأ لبيد (سـورة البقـرة) وقـال عندمـا انتهـى: منحنـي اللـه هذا عـوض شـعري بعد أن أصبحـت مسـلما. وعندمـا سـمع الخليفـة عمـر بـن الخطـاب رضي اللـه عنـه بذلـك أضـاف مبلـغ ٥٠٠ درهم إلى ٢٠٠٠ درهم التـي كان يتقاضها لبيد. وحين أصبـح معاويـة خليفـة للمسـلمين اقـترح تخفيـض مخصصـات الشـاعر، فذكره لبيـد أنـه لـن يعيـش طويـلا. تأثـر معاويـة بـكلام لبيد ودفـع مخصصـه كاملا، لكـن لبيـد تـوفي قبـل أن يصـل المبلـغ إلى الكوفـة، رحمـه الله رحمة واسـعة.

شعره

لقـد أبـدع لبيـد في شـعره وقـدم العديـد مـن القصائـد الجزلـة وروى أبـو هريـرة رضي اللـه عنه أن رسـول اللـه ﷺ قال: أصدق كلمة قالها شـاعر كلمة لبيد:

ألا كل شيء مـا خـلا اللـه باطـل وكل نعيـم لا محالـة زائـل
وكل أنـاس سـوف تدخـل بينهـم دويهـة تصفـر منهـا الأنامـل
وكل امـرئ يومـا سـيعلم سـعيه إذا كشـفت عنـد الإلـه المحاصـل

إلى آخـر القصيـدة. وقـد ذكـر في كتـب الأدب أن أم المؤمنـين عائشـة رضي اللـه عنهـا وعـن أبيهـا أنشـدت بيتـا للبيـد يقـول فيه:

ذهـب الذيـن يعـاش في أكنافهـم وبقيـت في خلـف كجلـد الأجـرب

فقالـت كيـف لـو أدرك لبيـد زماننـا هـذا، مـاذا سـيقول؟! وقـد ردد نفـس الـكلام عـدة أشـخاص وقالـوا كيـف لـو أدركت أمنـا عائشـة زماننا هـذا؟ وهذا حديـث مطـول نختـصره كي نتجنـب الإطالة.

المعلقة

إضافة إلى القصائد المتعددة والمتنوعة التي قدمها لبيد فهو صاحب إحدى المعلقات حيث قال في مطلعها:

عفت الديار محلها فمقامها بمنى تأبد غولها فرجامها
فمدافع الريان عري رسمها خلقا كما ضمن الوحي سلامها
دمن تجرم بعد عهد أنيسها حجج خلون حلالها وحرامها
رزقت مرابيع النجوم وصابها ودق الرواعد جودها فرهامها

توفي لبيد رحمه الله سنة ٤١ هـ/٦٦١م، مخلفا إرثا كبيرا من الشعر والحكمة ويصنف شعره كشعر جاهلي لأنه قال كل قصائده في عصر الأدب الجاهلي ولم يقل إلا بيتا واحدا في الإسلام كما ذكرنا في هذه المقالة.

كعب بن زهير

حياته ونسبه

ولد كعب في الجاهلية وهو أبو عقبة كعب بن زهير بن أبي سلمة المزني. شاعر مخضرم أدرك الجاهلية والإسلام، وهو من عائلة امتازت بالشعر فأبوه زهير صاحب إحدى المعلقات وأخوه بجير شاعر وكذلك ابنه عقبة وحفيده العوام أيضا.

شعره

كان كعب سليل أسرة شاعرة، أخذ الشعر عن أبيه الذي كان يصحبه إلى الصحراء فيعطيه بيتا أو شطرا ويطلب منه أن يكمله وكان أبوه ينهاه عن قول الشعر عندما كان صغيرا حتى لا يأتي بالضعيف ويشوه سمعة العائلة الشعرية. هذا وقد أجمع كثير من الأدباء على أن زهيرا، والد كعب، هو أحد أشعر العرب. وقال عمر بن الخطاب، رضي الله عنه: أشعر الناس من قال: «ومن ومن ومن» ويقصد الحكم في معلقة زهير حيث بدأ كثيرا منها بـ «ومن» مثل قوله:

ومن هاب أسباب المنايا ينلنه وإن يرق أسباب السماء بسلم
ومن يك ذا فضل فيبخل بفضله على قومه يستغن عنه ويذمم

أراد زهير لأبنائه أن يتجنبوا الشعر حتى ينضجوا وكان يضرب كعبا كلما قال الشعر وهو صغير حتى يثنيه عن ذلك لكن كعبا لم يتوقف عن قول بعض الأبيات فغضب أبو وأمره بالتزام البيت ثم أمره أن يرعى غنمه. فقال كعب:

كأنما أحدو ببهمي عيرا من القرى موقرة شعيرا

فخرج إليه زهير وبعد أن وصله، قال:

إني لتعديني على الهم جسرة تخب بوصال صروم وتعنق

ثم قال لكعب: أجز. فرد كعب:

كبنيانة القرئي موضع رحلها وآثار نسعيها من الدف أبلق

عندها أعجب بذلك زهير وقال: يا بني أذنت لك في الشعر.

تم جمع العديد من القصائد لكعب في ديوان شعري خاص به وتنوعت قصائده بين الفخر والمدح والهجاء والرثاء والغزل والوصف، ولكن قصيدته «البردة» فاقت كل ما قدمه من الشعر. ويرى بعض النقاد أن شعره ينقسم بين اتجاهين متباينين هما ما قبل الإسلام وما بعده حيث إن إسلام كعب غير نهج حياته وشعره وأمده بكثير من الصور، ورقق ألفاظه ومعانيه. وكان يميل في الجاهلية إلى الشدة في اللفظ وخاصة في وصف الصحراء، بينما امتاز شعره بعد الإسلام بالحكمة والابتعاد عن المواضيع الجاهلية، مثل قوله.

أعلم أني متى ما يأتني قدري فليس يحسبه شح ولا شفق
بينا الفتى معجب بالعيش مغتبط إذ الفتى للمنايا مسكم غلق
والمرء والمال ينمي ثم يذهبه مر الدهور ويفنيه فينسحق
فلا تخافي علينا الفقر وانتظري فضل الذي بالغنى من عنده نثق
إن يفن ما عندنا فالله يرزقنا ومن سوانا ولسنا نحن نرتزق

إسلام كعب وقصيدته المشهورة «بانت سعاد»

الكثير منا يعلم قصة إسلامه المشهورة والتي ذكرت كثيرا في كتب التاريخ والأدب. لقد أسلم بجير قبل أخيه كعب فغضب لذلك كعب ثم هجا أخيه والمسلمين أيضا. وقال مخاطبا أخيه:

ألا بلغا عني بجيرا رسالة فويحك فيما قلت ويحك هل لكا
فبين لنا إن كنت لست بفاعل على أي شيء غير ذلك دلكا
على خلق لم ألف يوما أبا له عليه وما تلقى عليه أبا لكا
فان أنت لم تفعل فلست بآسف ولا قائل أما عثرت لعالكا
سقاك بها المأمون كأسا رويه فأنهلك المأمون منها وعلكا

فرد عليه بجيرا في قصيدة حثه فيها على اعتناق الإسلام كي ينجو في الدنيا والآخرة:

مـــن مبلـــغ كعبا فهـــل لـــك في التي تلـــوم عليهـــا باطـــلا وهـــي أحـــزم
إلى اللـــه لا العـــزى ولا الـــلات وحده فتنجـــو إذا كان النجـــاء وتســـلم
لـــدى يـــوم لا ينجـــو وليـــس بمفلت مـــن النـــار إلا طاهـــر القلـــب مســـلم
فديـــن زهـــير وهـــو لا شيء دينـــه ودين أبي ســـلمى عـــلي محـــرم

وبعـد أن تعـرض كعب للإسـلام والمسـلمين أهدر الرسـول ﷺ دمه بسـب إيذائـه للمسـلمين. وقـال لـه بجـير أن الرسـول ﷺ لا يقتـل مـن جـاءه تائبـا فنصحـه أن يـأتي إليـه خصوصـا أن كثـيرا مـن القبائـل دخلـت الإسـلام وأنه لن يجـد مـن يؤويـه. عندمـا بلـغ ذلك زهـيرا ضاقت عليـه الأرض بما رحبـت، فلجأ إلى قبيلتـه مزينـة لتجـيره مـن النبـي ﷺ فأبـت عليـه، وعندئـذ اسـتبد بـه الخـوف وأيقـن أنـه مقتول. وبدأ يفكـر بالذهاب إلى المدينـة، فذهب إلى رجل يعرفـه مـن قبيلـة جهينـة، فـأتى بـه الرجـل إلى المسـجد. وقـال الرجـل لكعب: ذاك رسـول الله ﷺ فقم إليه واسـتأمنه. تلثم كعب وتوجه إلى الرسـول ﷺ ووضـع يـده بيـده، ثـم قـال: يـا رسـول اللـه إن كعبـا جـاء تائبـا مسـلما، فهـل أنـت قابـل منـه إن جئتـك به؟ قال رسـول اللـه ﷺ: نعم. فكشـف كعب عن وجهـه وقـال: أنـا هو، ثـم أنشـد لاميته:

بانـــت ســـعاد فقلبـــي اليـــوم متبول متيـــم إثرهـــا لم يفـــد مكبـــول
ومـــا ســـعاد غـــداة البـــين إذ رحلوا إلا أغـــن غضيـــض الطـــرف مكحـــول
هيفـــاء مقبلـــة عجـــزاء مدبـــرة لا يشـــتكى قـــصر منهـــا ولا طـــول
أمســـت ســـعاد بـــأرض لا يبلغهـــا إلا العتـــاق النجيبـــات المراســـيل
تفـــري اللبـــان بكفيهـــا ومدرعهـــا مشـــقق عـــن تراقيهـــا رعابيـــل
يســـعى الوشـــاة بجنبيهـــا وقولهـــم إنـــك يـــا بـــن أبي ســـلمى لمقتـــول
وقـــال كل خليـــل كنـــت آملـــه لا ألفينـــك إني عنـــك مشـــغول
فقلـــت خلـــوا ســـبيلي لا أبـــا لكـــم فـــكل مـــا قـــدر الرحمـــن مفعـــول
كل ابـــن أنثـــى وإن طالـــت ســـلامته يومـــا عـــلى آلـــة حدبـــاء محمـــول
أنبئـــت أن رســـول اللـــه أوعـــدني والعفـــو عنـــد رســـول اللـــه مأمـــول
مهـــلا هـــداك الـــذي أعطـــاك نافلة القـــرآن فيهـــا مواعيـــظ وتفصيـــل
لا تأخـــذني بأقـــوال الوشـــاة ولم أذنـــب ولـــو كـــثرت عنـــي الأقاويـــل
مازلـــت أقتطـــع البيـــداء مدرعـــا جنـــح الظـــلام وثـــوب الليـــل مســـبول

حتـــى وضعـــت يمينـــي لا أنازعـــه ... في كـف ذي نقـمات قيلـه القيـل
إن الرســـول لنـــور يســـتضاء بـــه ... مهنـد مـن سـيوف اللـه مسـلول
في عصبـــة مـــن قريـــش قـــال قائلهم ... ببطـن مكـة لمـا أسـلموا زولـوا
زالـــوا فـــمازال أنـــكاس ولا كشـــف ... عنـد اللقـاء ولا ميـل معازيـل
شـــم العرانـــين أبطـــال لبوســـهم ... مـن نسـج داود في الهيجـا سرابيـل
لا يقـــع الطعـــن إلا في نحورهـــم ... ومـا إن لهـم عـن حيـاض المـوت تهليـل

وبعـد أن انتهـى مـن قصيدتـه أهداه رسـول الله ﷺ بردته وألبسـه إياها، لذلك سـميت بالبردة وتسـمى أيضا اللامية أو بانت سـعاد. وقال الفاخوري: ما زالـت الـبردة موجـودة عنـد أبناء كعـب حتى اشـتراها معاوية منهـم بعشرين ألـف درهـم وتوارثهـا الخلفـاء الأمويين ثم اشـتراها أبو جعفر المنصـور بأربعين ألفـا وبعـد ذلـك آلـت الى السـلاطين العثمانيين وهـي موجـودة الآن في متحف البـاب العـالي في تركيـا، كما ذكر بعـض المؤرخين.

توفي كعب، رحمه الله، سنة ٢٤ هـ ٦٤٦ م.

القاضي شريح

حياته ونسبه

ولد أبو أمية، شريح بن الحارث بن قيس الكندي، في الجاهلية وعاش عمرا طويلا بلغ ١٠٨ سنين، وهو من أهل اليمن. عمل قاضيا للكوفة لما يقارب ٦٠ عاما، وقال عنه علي بن أبي طالب، رضي الله تعالى عنه، أن شريحا أقضى العرب. أسلم قبل أن يتوفى رسول الله ﷺ ولكنه لم يره لذا فهو لا يعد من الصحابة بل من التابعين. وكان يريد التوجه إلى المدينة المنورة لرؤية وملاقاة رسول الله ﷺ لكنه شغل عن ذلك، والله أعلم.

كان القاضي شريح فقيها ومحدثا وشاعرا، وارتبط اسمه بالعدل حيث نسمع باسمه كلما تكلم المتحدثون عن العدل والقضاء والحكم بين بالناس بالحق. وهو صاحب الأحكام والأفعال التي مازال القضاة يذكرونها إلى يومنا هذا. وكان دأب شريح أن يساوي بين المتخاصمين بالحقوق والواجبات وإن تخاصم الوالي أو الأمير مع أشد الناس فقرا وضعفا.

شريح وزينب

ذكر في مصادر تاريخية مختلفة أن شريحا قال للإمام الشعبي بعد أن تزوج شريح من تميمية، أي من نساء بني تميم، يا شعبي: عليكم بنساء بني تميم، فإنهن النساء! قال الشعبي: وكيف ذاك؟ فقال شريح: مررت بدور بني تميم يوما، ورأيت امرأة جالسة وبجانبها فتاة جميلة، من أحسن ما رأيت، فطلبت منها ماء، فقالت المرأة أي الشراب أحب إليك؟ فقال شريح: ما تيسر. فقالت المرأة لابنتها: اسقوا الرجل لبنا فإني أخاله غريبا! فلما شرب شريح نظر إلى الجارية فأعجبته، فقال: من هذه؟ فقالت: ابنتي. قال شريح: أفارغة أم مشغول؟ فقالت: فارغة؛ أي غير متزوجة. ثم قال

شريح: أتزوجينيها؟ قالت نعم: إن كنت كفؤا لها. فتركها ومضى إلى بيته، ثم اصطحب بعض الأشراف وذهب إلى عمها ليخطبها. قال عمها: ما حاجتك يا أبا أمية؟ فذكر له ما جاء من أجله فوافق على الزواج. قال شريح وبعدما عدت إلى البيت بدأت أشعر بالندم، لأنني ظننت أنني تزوجت من أغلظ العرب قلوبا وأجفاها، بنو تميم. فهممت بطلاقها ولكن شاء الله أن يتم الزواج.

قبل أن يدخل بها شريح قال لها إن من السنة أن أصلي ركعتين وأن تصلي ركعتين أيضا. فبدأ بصلاته، فلما انتهى وجدها تصلي خلفه. قال شريح: فلما خلا البيت اقتربت منها وقربت يدي منها فقالت: على رسلك! فقلت في نفسي إنها منيت بإحدى المصائب، فحمدت الله وصليت على رسول الله ﷺ. عندها قالت: إني امرأة عربية ولا والله ما سرت بطريق لا يرضي الله، وأنت رجل لا تزال غريبا، لا أعرف أخلاقك! فحدثني بما تحب فآتيه وما تكره فأجتنبه. فقلت لها أحب كذا وكذا وأكره كذا وكذا. ثم قالت أخبرني عن قرابتك: أتحب أن يزوروك؟ فقلت: أنا رجل قاض، وما أحب أن يملوني. فقضيت معها ثلاثة أيام ثم خرجت إلى مجلس القضاء وكنت أرى كل يوم هو أفضل من الذي سبقه. وعندما انقضت السنة الأولى، وأنا على هذا الحال، دخلت المنزل وإذا بامرأة عجوز تأمر وتنهي في المنزل، فقلت: يا زينب من هذه؟ فقالت: أمي. قلت مرحبا. قالت: يا أبا أمية كيف أنت وزوجك؟ قلت: إنها خير امرأة وقرينة ولقد ربيت فأحسنت التربية وأدبت فأحسنت التأديب. فقالت إن المرأة لا ترى في حال أسوأ خلقا من حالتين: إذا حظيت عند زوجها وإذا ولدت غلاما! فإن رابك منها ريب فعليك بالسوط، لإن الرجال ما حازت في بيوتها شرا من الورهاء المدللة! والورهاء هي (كثيرة الشحم أو الخرقاء). وقال شريح: مكثت معي زينب ٢٠ سنة لم أعب عليها شيئا قط.

شعره

رويت عن القاضي شريح العديد من القصائد وكان كثير منها يتعلق بالعدل ومواضيع أخرى مختلفة. سنذكر من هذه القصائد بعض الأبيات فقط، تجنبا للإطالة:

قال شريح:

خذي العفو مني تستديمي مودتي ولا تنطقي في سورتي حين أغضب
فإني رأيت الحب في القلب والأسى إذا اجتمعا لم يلبث الحب يذهب

وقال في زوجته زينب:

رأيت رجالا يضربون نساءهم فشلت يميني حين أضرب زينبا
أأضربها في غير ذنب أتت به فما العدل مني ضرب من ليس مذنبا
فزينب شمس والنساء كواكب إذا طلعت لم تبد منهن كوكبا
فتاة تزين الحي هي إن حليت كأن بفيها المسك خالط محلبا

القاضي شريح والخلفاء

عمل شريح في القضاء خلال عهد الفاروق عمر بن الخطاب ومن ثم عثمان بن عفان وعلي بن أبي طالب، رضي الله عنهم جميعا. وعمل أيضا بالقضاء خلال عهد معاوية، رضي الله عنه. وكان رزقه على القضاء في كل شهر مائة درهم، وقيل: خمسمائة درهم، والله أعلم.

وقيل إن شريحا طلب من الفاروق، رضي الله عنه، أن يجعل دارا خاصة للقضاء، فسأله الفاروق، ولم ذلك؟ أجاب شريح بأن نبي الله داوود ﷺ لم يأت بالحكم الصحيح عندما تسوروا المحراب لأنه لم يكن مستعدا للقضاء. وقصد شريح أن القاضي عندما يكون في مجلس خاص للقضاء ومكان خاص أيضا فإن ذلك يجعله أكثر استعدادا ويستطيع أن يركز أكثر ليأتي بالحكم الصحيح. وأضاف شريح بأنه لابد من دار متخصصة للقضاء وكان قبلها القاضي يحكم من داره. ولاه حينذاك الخليفة عمر، رضي الله عنه، قضاء الكوفة وجعل لها دارا خاصة بالقضاء وأمر بمثل ذلك في جميع الأمصار.

وهنـاك قصـة جميلـة أخـرى لشريـح مع أمـير المؤمنـين علي بـن أبي طالب، رضي اللـه عنـه، حيـث تنازع مـع يهودي على درع، فاحتكـما إلى القاضي شريح، فقـال شريـح: هـل مـن بينـة يـا أمير المؤمنـين؟ قـال نعم: الحسـن ابني يشـهد أن الـدرع درعـي. قـال شريـح: يـا أمـير المؤمنـين شـهادة الابـن لا تجـوز. فقال عـلي: سـبحان اللـه، رجـل مـن أهـل الجنـة لا تجـوز شـهادته؟ فقال شريـح: يا أمـير المؤمنـين ذلـك في الآخـرة، أمـا في الدنيـا فـلا تجوز شـهادة الابـن لأبيه. ثم قـال عـلي: صدقت الـدرع لليهودي. فتعجـب اليهودي من صنيـع أمير المؤمنين وقاضيـه الـذي قـضى لصالـح اليهـودي لعـدم وجـود الدليـل الـكافي. ثـم قـال أشـهد أن هـذا الديـن عـلى الحـق، وأشـهد أن لا إلـه إلا الله وأشـهد أن محمدا رسـول اللـه، وأشـهد أن الـدرع درعـك يا أمـير المؤمنين، سـقط منك ليـلا. وبعد أن أسـلم اليهـودي أهـداه أمـير المؤمنـين الـدرع. ذكـر البيهقـي هـذه القصـة ولكـن البعـض يـرى أنهـا ضعيفة الإسـناد، واللـه أعلم.

وقيل أيضا إن الشـعبي كان جالسـا عند شريح ودخلت عليه امرأة تشـتكي زوجهـا وتبـكي بـكاء شـديدا، فقال الشـعبي: أصلحـك الله ما أراهـا إلا مظلومة مأخـوذا حقهـا، قال: ومـا علمك؟ قال لشـدة بكائها وكثرة دموعهـا. قال شريح: لا تفعـل إلا بعـد أن تتبـين أمرهـا، فـإن إخـوة يوسـف جـاؤوا أباهـم عشـاء يبكـون، وهم لـه ظالمون.

خاتمة

لقـد مكـث في قضـاء الكوفـة مـذ كان عمـره ٤٧ سـنة حتـى بلـغ ١٠٧ سـنين. وكتـب في مجلـس قضائه «إن الظالم وإن حكمت لـه ينتظر العقاب، وإن المظلوم وإن حكمـت عليـه ينتظر الإنصـاف». وكتب حديث نبـوي: «إنكم تختصمون إلي وإنمـا أنـا بـشر فأيمـا رجـل اقتطعت له حـق من أخيه لا يسـتحقه فإنمـا اقتطعت لـه قطعـة مـن النار سـيطوق بها يوم القيامـة». توفي رحمه الله سـنة ٧٨ للهجرة.

الخنساء وليلى الأخيلية

تحدثنا في المقالات السابقة عن رجال أبدعوا في مجال التاريخ والأدب، رغم أن التاريخ والأدب العربي كان حافلا بالنساء اللواتي تميزن في مختلف نواحي الحياة، بما في ذلك الأدبية والتاريخية. لذا سنتحدث في هذه المقالة عن شاعرتين وأديبتين قدمتا إرثا عظيما من الشعر والحكمة، هما الخنساء وليلى الأخيلية.

الخنساء

هي تماضر بنت عمرو السلمية ويعود نسبها إلى امرئ القيس، وهي صحابية جليلة وشاعرة مخضرمة أدركت الجاهلية والإسلام. كان والدها من سادات وأشراف العرب في الجاهلية. ولدت سنة ٥٧٥م، وهي من سكان نجد ولقبت بهذا الاسم لقصر أنفها وارتفاع أرنبتيه.

إسلام الخنساء

بعد أن انتشر الإسلام في جزيرة العرب، صحبت الخنساء بنيها وبني عمها من بني سليم وقدمت إلى الرسول ﷺ وأعلنوا إسلامهم عام ٨ هـ - ٦٣٠ م. وكانت قد بدت عليها ملامح الشيخوخة، حيث كان عمرها يتراوح بين الخمسين والستين آنذاك.

وقد ذكر البعض أن الخنساء حضرت حرب القادسية سنة ١٦ هـ، ٦٣٨ م، بقيادة سعد بن أبي وقاص، وخلال خلافة عمر بن الخطاب، رضي الله عنهما، وكان معها بنوها، أربعة رجال، فقالت لهم: يا بني إنكم أسلمتم وهاجرتم مختارين، والله الذي لا إله غيره إنكم لبنو رجل واحد، كما إنكم بنو امرأة واحدة، ما خنت أباكم ولا فضحت خالكم، ولا هجنت حسبكم

ولا غيرت نسبكم. وقد تعلمون ما أعد الله للمسلمين من الثواب الجزيل في حرب الكافرين. واعلموا أن الدار الباقية خير من الدار الفانية يقول الله: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ) آل عمران/ ٢٠٠. فإذا أصبحتم غدا إن شاء الله سالمين، فاغدوا إلى قتال عدوكم مستبصرين، وبالله على أعدائه مستنصرين. وإذا رأيتم الحرب قد شمرت عن ساقها فتيمموا وطيسها، وجالدوا رئيسها عند احتدام خميسها تظفروا بالغنم والكرامة في دار الخلد والمقامة. فلما بلغ إليها خبر استشهادهم جميعا، لم تجزع ولم تبك، ولم تحزن، وقالت قولتها المشهورة: الحمد لله الذي شرفني باستشهادهم، وأرجو من ربي أن يجمعني بهم في مستقر رحمته. وكان عمر بن الخطاب يعطي الخنساء أرزاق أولادها الأربعة، حتى قبض رضي الله عنه.

وقيل إن الشهداء الأربعة لم يكونوا أبناء الخنساء وإنما هم أبناء امرأة أخرى، لأن الخنساء لم يكن لها أربعة أبناء ذكور من رجل واحد، وفقا لما ذكر في بعض الروايات. ولكن ربما كان لها أربع أولاد من زوجها مرداس ولم يتمكن الرواة من نقله، خصوصا أنها كانت تتلقى أرزاق بنيها الأربعة من بيت مال المسلمين في خلافة عمر رضي الله عنه، بواقع ٢٠٠ درهم لكل واحد منهم، وذكر اسمها أيضا في ديوان بيت المسلمين مما يشير إلى أن هذه الرواية صحيحة، والله أعلم.

حياتها الأسرية

أبت الخنساء إلا أن تتزوج من أبناء عمومتها، حتى وإن تقدم لخطبتها وجهاء القوم في تلك الأيام، وقالت لأبيها بعد أن تقدم لخطبتها دريد بن الصمة، فارس هوازن وجشم، يا أبت: أتراني تاركة بني عمي مثل عود الرماح، وناكحة شيخ بني جشم! ورفضت الزواج من سيد آل بدر أيضا، وتزوجت الخنساء من عبد العزى وولدت له عبدالله.

وتزوجت فيما بعد من مرداس بن أبي عامر السلمي، الملقب بالفيض لسخائه. وولدت له أربعة بنين هم: العباس وزيد ومعاوية وبنتا اسمها عمرة. وكان مرداس في رأيها أفضل الناس حلما ومروءة وشجاعة، فقالت فيه :

ليبك الفيض مرداسا سليم أولو أحسابها وأولو نهاها
وخيل قد لففت بجمع خيل فدارت بين كبشيها رحاها

شعرها

اشتهرت الخنساء بالرثاء وخاصة رثاء أخويها صخر ومعاوية وكان صخر يعطف عليها كثيرا ويساعدها عندما تزوجت من عبد العزى، الذي كان محبا للمال، وكان يطلب منها المال ويلوح بهجرها إن لم تأت له به، فكانت تذهب إلى صخر فيشاطرها ماله.

وقد أجمع أهل الأدب والشعر أنها كانت أشعر النساء وأشعر من كثير من فحول الشعراء الرجال. وقالت في رثاء أخيها صخر:

قذى بعينك أم بالعين عوار أم ذرفت إذ خلت من أهلها الدار
كأن عيني لذكراه إذا خطرت فيض يسيل على الخدين مدرار
تبكي خناس على صخر وحق لها إذ رابها الدهر إن الدهر ضرار
قد كان فيكم أبو عمرو يسودكم نعم المعمم للداعين نصار
وإن صخرا لوالينا وسيدنا وإن صخرا إذا نشتو لنحار

وقالت في رثاء معاوية:

ألا لا أرى في الناس مثل معاويه إذا طرقت إحدى الليالي بداهيه
بداهية يصغى الكلاب حسيسها وتخرج من سر النجي علانيه
ألا لا أرى كالفارس الورد فارسا إذا ما علته جرأة وعلانيه

كان بشار يقول: إنه لم تكن امرأة تقول الشعر إلا يظهر فيه ضعف، فقيل له: وهل الخنساء كذلك، فقال: تلك التي غلبت الرجال. وسئل جرير عن أشعر الناس فأجابهم: أنا، لولا الخنساء، قيل: فيم فضل شعرها عنك؟ قال: بقولها:

إن الزمان وما يفنى له عجب أبقى لنا ذنبا واستؤصل الرأس

توفيت الخنساء، رحمها الله، سنة ٢٤ هـ/٦٤٥ م عن عمر يناهز ٧١ عاما. وقد قدمت ديوانا رائعا مازال يتغنى به الشعراء والأدباء حتى عصرنا هذا.

ليلى الأخيلية

هي ليلى بنت عبد الله بن الرحال بن شداد بن كعب الأخيلية. ولدت في الإسلام، وهي شاعرة عربية مشهورة وكانت تتميز بالفصاحة والجمال. عاشت في مرحلة صدر الإسلام والعصر الأموي وكانت لها قصة حب مشهورة مع، ابن عمها، توبة بن الحمير. وقالت قصائد كثيرة وبليغة في رثاء توبة. وتعتبر واحدة من أهم شعراء وشاعرات العرب ولا يتقدم عليها سوى الخنساء.

حياتها

أحبت ليلى توبة بن الحمير ولكن أباها زوجها من أبي الأذلع واستمر توبة في زيارتها ما بين الحين والآخر، حتى شكاه زوجها إلى السلطان فهدر دمه. وذات يوم علمت ليلى أن توبة قد قدم لزيارتها فخرجت سافرة وجلست في طريقه، فلما رآها أدرك أنه قد نصب له كمين فرجع وقال:

حمامة بطن الواديين ترنمي سقاك من الغر الغوادي مطيرها
وكنت إذا ما جئت ليلى تبرقعت فقد رابني منها الغداة سفورها

تزوجت ليلى مرتين، وكان زوجها الأول غيور جدا فطلقها لغيرته من توبة، وقيل إنه مات. وتزوجت أيضا من سوار القشيري، وكان صحابيا وشاعرا مخضرما، وقيل أنها أنجبت له بعض الأولاد. ولم يدعها والدها وأخوها فيما بعد أن تتزوج من توبة لحبه الشديد لها، وجهره به.

شعرها

كانت ليلى مشهورة بين الأمراء والخلفاء، فحظيت باحترامهم وأسمعتهم من قصائدها فنالت الهدايا والأعطيات، ونبغت في الرثاء و المدح. وكان الشعراء يحتكمون إليها، وكانت تفاضل بينهم.

يذكر أن ليلى دخلت على الخليفة الأموي، عبد الملك بن مروان، وهي مسنة فسألها «ماذا رأى فيك توبة بن حمير حين أحبك؟» فقالت: يا أمير المؤمنين، ماذا رأى الناس فيك حين ولوك أمرهم!! فأعجب بإجابتها ولم يغضب عليها.

وكانت على صلة بالحجاج بن يوسف الثقفي فمدحته في قصيدة، سنذكر بعض أبياتها:

أحجاج لا يفلل سلاحك إنما المنايا بكف الله حيث تراها
إذا هبط الحجاج أرضا مريضة تتبع أقصى دائها فشفاها
شفاها من الداء العضال الذي بها همام إذا هز القنا سقاها
سقاها دماء المارقين وعلها إذا جمحت يوما وخفيف أذاها
إذا سمع الحجاج صوت كتيبة أعد لها قبل النزول قراها

لقد أكرمها الحجاج بعد هذه القصيدة، وقال لمن معه: أتدرون من هذه المرأة؟ قالوا لا، ولم نسمع أفصح وأبلغ منها! قال: هذه ليلى صاحبة توبة.

وقالت أيضا:

نحـــن الأخايـــل مـــا يـــزال غلامنـــا حتـــى يـــدب عـــلى العصـــا مذكـــورا
تبـــكي الرمـــاح إذا فقـــدن أكفنـــا جزعـــا وتعلمنـــا الرفـــاق بحـــورا

ذكر في كتاب قصص العرب، لإبراهيم شمس الدين، أن ليلى مرت مع زوجها، بقبر عشيقها توبة بن الحمير، فقال لها زوجها: هذا قبر الكذاب الذي قال:

ولـــو أن ليـــلى الأخيليـــة ســـلمت عـــلي ودوني جنـــدل وصفائـــح
لســـلمت تســـليم البشاشـــة أو زقـــا إليهـــا صـــدى مـــن جانـــب القـــبر صائـــح

فقالـت ليـلى لزوجهـا دعـك عنه! فقال: أقسـمت عليك ألا تقـتربي من قبره، فلـم تجـب، وسـلمت عـلى توبـة، فـما كان من إجابـة، ثـم تقدمـت إلى القبر، وقالـت: السـلام عليـك يـا توبـة، فطار من جانـب القبر طائـر كان هنـاك وزقا، ثـم نفـر جملهـا مـن الصـوت، فوقعـت منـه فاندقـت عنقهـا، وماتـت ودفنت بجانبـه، رحمها اللـه تعالى.

الفصل الثالث

العصر الأموي

يمتد العصر الأموي من مقتل الخليفة الراشدي الرابع علي بن أبي طالب رضي الله عنه سنة ٤٠ هـ إلى نهاية الدولة الأموية وبزوغ نجم الخلافة العباسية سنة ١٣٢ هـ.

تطور الأدب في هذه الفترة وتأثر ببعض العوامل السياسية والاجتماعية فظهرت فنون جديدة على نطاق الشعر والنثر منها الشعر السياسي أو الحزبي نتيجة تحزب الدولة وتفرقها بداية العصر الأموي إلى أن وحدها عبدالملك بن مروان تحت راية واحدة فيما بعد.

برز أيضا في العصر الأموي شعر الهجاء كما حدث بين جرير والفرزدق إضافة إلى ألوان الشعر الأخرى. وكان لانتشار الهجاء في العصر الأموي الكثير من السلبيات لأن ذلك يناقض جوهر الإسلام الذي يساوي بين الناس ويدعو إلى حسن الخلق بل وآخى بين المسلمين وجعل من الإيمان أن يحب المسلم للمسلم ما يحبه لنفسه. ورغم ما تحمله الهجائيات من سلبيات فقد ساهمت في إثراء المكتبة العربية بمزيد من القصائد في هذا النوع من الشعر.

اشتهر عدد من الشعراء في هذا العصر، وتبوأ الشعراء المجيدون مكانة مرموقة بين الناس إذ إن الخلفاء الأمويون خاصة عبد الملك بن مروان كانوا يقربونهم ويكرمونهم ويعقدون معهم مجالس الشعر والأدب. ومن أشهر الشعراء الذين برزوا خلال الخلافة الأموية جرير والفرزدق وقيس بن الملوح وملك النحو أبو الأسود الدؤلي.

أبو الأسود الدؤلي

ملك النحو

اسم احتل مكانة بارزة في عدة مجالات لاسيما الشرعية والأدبية والشعرية. كان من سادات التابعين، عليهم رضوان الله، ودهاتهم. إنه أمير وقاضي البصرة ظالم بن سفيان الدؤلي الكناني المعروف بأبي الأسود الدؤلي. كان رحمه الله من أوائل النحاة وهو من وضع علم النحو ووضع تشكيل القرآن الكريم جزاه الله عنا خيرا.

ولد سنة ١٦ قبل هجرة النبي ﷺ وآمن به لكنه لم ير رسول الله ﷺ لذلك يعد من كبار التابعين وتوفي سنة ٦٩ للهجرة. تولى عددا من المناصب في خلافة عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان وعلي بن أبي طالب رضي الله عنهم أجمعين. كان عبدالله بن عباس أميرا على البصرة أثناء خلافة علي بن أبي طالب وكان أبو الأسود الدؤلي كاتبا له ثم ولاه قضاء البصرة وعندما رجع ابن عباس إلى المدينة استخلف على إمارة البصرة أبا الأسود الدؤلي فأقره الخليفة علي أميرا عليها.

وضعه لعلم النحو

كان أبو الأسود الدؤلي فصيحا وأديبا وشاعرا وقد أجمع الكثير من النحاة والمؤرخين على أن الدؤلي هو أول من أسس ووضع علم النحو، ويرى البعض أن نصر بن عاصم الليثي كان أيضا ممن وضعوا علم النحو، وقد كان عاصم أحد تلامذة أبي الأسود الدؤلي. ويذكر أن أبا الأسود هو أول من وضع باب الفاعل والمفعول والمضاف وغيرها مما يسمى اليوم بالإعراب، وهو أول من وضع التشكيل على حروف القرآن الكريم لذلك كان يلقب بملك النحو.

لقد كان هناك اختلاف في هذه المسألة ولكن ما ورد في المصادر القديمة يؤكد أن أبا الأسود هو أول من رسم النحو. وقد قيل أن أبا الأسود الدؤلي وضع علم النحو بناء على طلب أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، رضي الله تعالى عنه، لأنه سمع اللحن في كلام بعض المسلمين وخاصة الذين اعتنقوا الإسلام وجاؤوا من مناطق الفتوحات.

قال أبو الأسود الدؤلي أرى العرب قد خالطت العجم فتغيرت ألسنتهم؛ لذلك بدأ مشروعه النحوي وقد رأى أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ما أعده أبو الأسود الدؤلي في هذا المجال فقال: ما أجمل النحو الذي نحوت، فسمي بعد ذلك بالنحو. وقيل أيضا أنه هو من وضع النقاط على الحروف ولكن الأرجح والله أعلم أن من وضع النقاط على الحروف هو تلميذه نصر بن عاصم الليثي بأمر من الحجاج بن يوسف الثقفي، وسنتناول هذا الموضوع في الأعداد القادمة إن شاء الله.

قال أبو الأسود دخلت على علي، فرأيته مطرقا، فقلت: فيم تتفكر يا أمير المؤمنين؟ قال: سمعت ببلدكم لحنا فأردت أن أضع كتابا في أصول العربية. فقلت: إن فعلت هذا، أحييتنا. فأتيته بعد أيام، فألقى إلي صحيفة فيها: الكلام كله، اسم وفعل وحرف، فالاسم ما أنبأ عن المسمى والفعل ما أنبأ عن حركة المسمى والحرف ما أنبأ عن معنى ليس باسم ولا فعل، ثم قال لي: زده وتتبعته، فجمعت أشياء ثم عرضتها عليه. ومن هنا بدأ العمل بالنحو في اللغة العربية.

شعر أبو الأسود الدؤلي

كان لأبي الأسود الدؤلي مكانته الشعرية وقال عنه ابن كثير في كتابه البداية والنهاية: كان له شعر حسن. لقد كتب العديد من القصائد التي تعالج قضايا ومواضيع مختلفة، وقد جمعت هذه القصائد بعدة مؤلفات منها ديوان أبو الأسود الدؤلي الذي جمعه أبو سعيد الحسن السكري

وحققه الشيخ محمد حسن آل ياسين. يضم هذا الديوان عشرات القصائد سنذكر منها بعض الأبيات.

كتب أبو الأسود إحدى قصائده عن صديق له يسمى «نصر بن مالك» وقد خرج مع الحرورية، وهي فئة خرجت على علي رضي الله عنه، فأصيب معهم فقال أبو الأسود في ذلك:

لعمرك ما نصر- فلا تحسبه من المسلمين- بالقوي ولا الجلد
خرجت مع العوراء تلتمس الهدى وكان الهدى فيما تركت على عمد
وقد كان في الفرقان لو كنت باغيا لنفسك منه ما يدل على الرشد

وقال أبو الأسود لرجل من بني نهد من قضاعة:

وما طلب المعيشة بالتمني ولكن ألق دلوك في الدلاء
تجئك بملئها طورا وطورا تجئك بحمأة وقليل ماء

وقال أيضا:

إذا أنت حملت الأمانة فارعها وكونن قفلا لا يرومك فاتح
فإن لسان المرء ما لم يكن له فؤاد بما يخفى على الناس بائح

ماذا قال عنه العلماء؟

قال عنه أحمد العجلي: ثقة وأول من تكلم بالنحو. وقال عنه الواقدي: كان من وجوه التابعين ومن أكملهم عقلا ورأيا وقد أمره علي، رضي الله عنه، بوضع شيء في النحو لما سمع اللحن. وقال عنه الجاحظ: أبو الأسود مقدم في طبقات الناس، وكان معدودا في الفقهاء والشعراء والمحدثين والأشراف والفرسان والأمراء والدهاة والنحاة ومن الحاضرين الجواب وكان حكيما وأديبا. قال محمد بن سلام الجمحي: أبو الأسود هو أول من وضع باب الفاعل والمفعول والمضاف وحرف الرفع والنصب والجر والجزم ، فأخذ ذلك عنه يحيى بن يعمر.

ويعتبر الدؤلي من الدهاة الذين يمتازون بالرأي الراجح حيث روي أن عليا بن أبي طالب، رضي الله عنه، أراده ليكون المفاوض عنه في حادثة التحكيم بعد وقعة صفين فأبى الناس عليه ثم روي أن أبا الأسود الدؤلي دخل على معاوية بالنخيلة فقال له معاوية: أكنت ذكرت للحكومة؟ (أي الحكم بين الفريقين المتخاصمين وهما أتباع علي وأتباع معاوية، رضي الله عنهما. فقال الدؤلي: نعم. قال معاوية فما كنت صانعا: قال: كنت سأجمع ألفا من المهاجرين وأبنائهم وألفا من الأنصار وأبنائهم ثم أقول يا معشر من حضر أرجل من المهاجرين أحق أم رجل من الطلقاء؟ فضحك معاوية ثم قال: إذن والله ما اختلف عليك اثنان (وقصد معاوية هنا أن حجة أبو الأسود كانت مقنعه وأن الناس سيرضون بحكم أبي الأسود بأن عليا أحق بالخلافة) خصوصا أن المسلمين جميعا يعرفون فضل المهاجرين وأصحاب بدر وعلي، رضي الله عنه، منهم.

خاتمة

أصيب آخر حياته بمرض الفالج حيث سبب له العرج وتوفي بالطاعون الجارف سنة تسع وستين للهجرة في البصرة خلال خلافة عبد الملك بن مروان عن عمر يناهز الخامسة والثمانين. وهكذا كانت حياة أبي الأسود الدؤلي مليئة بالإنجازات العظيمة ولا تزال بصماته واضحة في الأدب والشعر ونرى هذه البصمات جلية كلما قرأنا اللغة العربية، رحمه الله تعالى.

الحجاج بن يوسف الثقفي

اسمه ونسبه

هـو أبـو محمـد الحجاج بن يوسـف الثقفي، أحد أبرز قـادة العصر الأموي. ولـد في الطائـف سـنة ٤١ هـ/٦٦٠ م ، ونشـأ فيهـا ثـم انتقـل إلى الشـام ليلتحق بجيـش الخليفـة عبـد الملـك بن مـروان، وكان اسـمه كليبـا ثم أبدلـه بالحجاج. والـده يوسـف بـن الحكم بـن أبي عقيل بن مسـعود من بني ثقيـف وأمه هي الفارعـة بنـت هـمام بـن الثقفـي، الصحـابي الشـهيد. لقد اقـترن اسـم الحجاج بالظلـم، فـلا يكاد اسـمه يذكـر إلا وخطر على بال المسـتمعين الظلـم، ولا حول ولا قـوة إلا بالله.

أكبر وال في التاريخ

عندمـا نتحـدث عـن شـخصية الحجـاج، التي اسـتقطبت الكثير مـن الجدل والاهتـمام، فلابـد مـن مراعـاة الحقبـة التـي عـاش وحكـم بهـا، حيـث كانـت الفـتن تعصـف بالدولـة الأمويـة ومزقتهـا إلى دويـلات، كدولـة عبـد اللـه بـن الزبـير (رضي اللـه عنـه) في الحجـاز ودولـة الخـوارج في الـشرق؛ لـذا فقد كانت الدولـة بحاجـة إلى الحـزم والشـدة لإعـادة بنائهـا وهيبتها. كان الحجـاج يتأمل في حالـة الدولـة الإسـلامية ومـا آلـت إليه وكان عـلى خلاف مع رجـال عبد الله بـن الزبـير وكان يـرى بـأن عبد الملك بن مـروان هو الشـخص والخليفة الوحيد الـذي يمكـن أن يسـترد الدولـة، فقـرر التوجـه إلى دمشـق وانضـم إلى شرطتهـا بقيادة روح بن زمباع للمسـاهمة في اسـتعادة هيبة ومكانة الدولة الإسـلامية. لاحـظ القائـد روح شـدة وصلابـة الحجـاج، خـلال وقـت قصـير جـدا، فقربـه وقدمـه إلى الخليفـة عبـد الملـك، الـذي توسـم بـه خيرا فعـلى رتبته.

لقد قيل في الحجاج الكثير ولبست سيرته بالخوارق وربما كانت كثير من الأمور التي وصف بها غير صحيحة، وفقا لما رواه بعض المؤرخون. الآن وبعد أن مضى ١٣٠٠ عام تقريبا على وفات الحجاج سنحاول بإذن الله أن نلقي الضوء على أهم إنجازاته وبعض المظالم التي ارتكبها ووثقها ضده المؤرخون الثقات كابن كثير والذهبي وابن جرير وغيرهم.

حروب الحجاج

تدرج الحجاج في الجيش الأموي حتى تقلد مناصب قيادية في وقت وجيز، وعندما تخلص عبد الملك بن مروان من مصعب بن الزبير في العراق، قرر أن يوجه جيشا عظيما بقيادة الحجاج للقضاء على دولة عبد الله بن الزبير في مكة. توجه الحجاج إلى مكة وحاصرها حصارا طويلا، مما ينفي فرضية رمي الكعبة بالمنجنيق كما يظن البعض. وقال ابن تيمية رحمه الله في الجواب الصحيح (٥٠٢/٥): كان الحجاج معظما للكعبة ولم يرمها بمنجنيق، وزاد على ذلك بأن الحجاج لم يكن عدوا لها ولا أراد هدمها خصوصا أن الحجاج تقدم بجيشه فاحتل الأخشبين (جبل قيس وجبل قعيقان) وهما قريبان جدا من المسجد الحرام، الذي كان مفتوحا من أكثر من ناحية وهو ليس كالحصون أو القلاع، لذلك لم يكن بحاجة إلى منجنيق.

لقد أعطى الحجاج الأمان لابن الزبير وكل من أراد أن يخرج من مكة مسالما فرفض عبد الله وخرج منها خلق كثير. ثم دخل الحجاج مكة وقتل وصلب عبد الله بن الزبير، وأقره الخليفة واليا على مكة والمدينة ومكث فيهما زهاء سنتين، ثم عزله الخليفة لكثرة شكوى الناس عليه ومن ثم ولاه العراق بعد موت بشر بن مروان الذي كان يحكمه آنذاك.

ولاية الحجاج على العراق

كانت العراق، قبل أن يتولاها الحجاج، تعج بالفتن والاضطرابات، وولي الحجاج على العراق وهو كاره لأهلها وأهلها له كارهون، فكان حكما بالإجبار وكان أهل العراق يدركون تماما أنه لا فكاك لهم من الحجاج إلا بموته، لذلك حاولوا قتله أكثر من مرة ولكن محاولاتهم باءت بالفشل. وكانت خطب الحجاج مليئة بشتم أهل العراق وأخذهم بالسيف حتى استقام له الأمر. عندما قدم الحجاج إلى العراق، توجه إلى مسجد في الكوفة وأمر الناس أن يجتمعوا به، ثم دخل الحجاج ملثما بعمامة حمراء، واعتلى المنبر وأطال الجلوس دون أن يتكلم فضج الناس من سكوته، ثم خلع عمامته فجأة وبدأ خطبته المشهورة بقوله:

أنا ابن جلا وطلاع الثنايا متى أضع العمامة تعرفوني

ساهمت قسوة الحجاج في تخفيف الفتن تدريجيا حتى قضى عليها تماما بعد حرب ابن الأشعث. وفي بداية ولايته كان المهلب بن أبي صفرة يقاتل الخوارج، فأمر جميع القادرين من أهل العراق على حمل السلاح باتباع المهلب ونصرته، وعندما لمس منهم التقاعس، أمهلهم ثلاثة أيام وهدد بقتل من يجده بعد الأيام الثلاثة متخلفا وكذلك هدم داره ومصادرة أمواله. وبعد قتل أحدهم ذعر أهل العراق وتوجهوا إلى المهلب وكان له النصر في ذلك. واستمرت ولاية الحجاج في العراق عشرين عاما.

ثورة ابن الأشعث

كانت هذه الثورة نهاية الفتن في عهد الحجاج، ففي عام ٨٠ للهجرة ولى الحجاج عبد الرحمن بن الأشعث على سجستان وزوده بجيش كبير سمي بجيش الطواويس، لما زود به من تجهيزات واستعدادات عظيمة. توجه ابن

الأشعث إلى سجستان وفتح الكثير من أراضيها لكنه أعلن خلع الحجاج فيما بعد. وفي عام ٨١ ساند أهل البصرة ابن الأشعث وقاتلوا الحجاج فكانت الهزيمة ملازمة لجيش الحجاج بكل وقعة بينهما، باستثناء الوقعة الأخيرة، أو ما يعرف بوقعة دير الجماجم، حيث زوده الخليفة بجيش من الشام وانتصر الحجاج. كانت هذه الوقعة من أكثر الوقائع هولا في تاريخ الدولة الأموية وقتل فيها خلق كثير، وكانت هي معركة الفصل حيث ظفر الحجاج بجيش ابن الأشعث بين قتيل وأسير سنة ٨٣ هـ.

إنجازات الحجاج

يعتبر الحجاج أكبر وال في التاريخ، لأنه حكم مساحات شاسعة تمتد من العراق إلى البحرين وبلاد فارس وباكستان وكانت خيوله تدك الحصون في باكستان والهند على يد الغلام القائد محمد بن القاسم الثقفي (ابن عم الحجاج) الذي لم يتجاوز سن السابعة عشر في تلك الأيام. ووصلت خيوله إلى تخوم الصين، أقصى الشرق، على يد القائد قتيبة بن مسلم، رحمه الله، الذي عينه الحجاج قائدا للجيوش في تلك المنطقة.

لقد توسعت الفتوحات بشكل كبير في نهاية خلافة عبد الملك وخلافة الوليد، وعندما توفي الخليفة عبد الملك بن مروان سنة ٨٦ هـ، تولى الوليد زمام الحكم، وأقر الوليد الحجاج على ما كان عليه وقربه أكثر. لقد لعب القائدان، محمد وقتيبة، اللذان اختارهما الحجاج دورا بارزا في الفتوحات حيث تولى قتيبة بن مسلم الباهلي قيادة جيوش خراسان سنة ٨٧ هـ، وقد باشر قتيبة فتوحاته في بلاد ما وراء النهر في العام نفسه، ففتح بيكند، ثم فتح بخارى وبلخ سنة ٩٠ هـ، وسمرقند سنة ٩٣ هـ، وكابل سنة ٩٤ هـ، وأخيرا فتح كاشغر سنة ٩٦ هـ (وهي عاصمة تركستان الشرقية) وبلغ بذلك حدود الصين، لكنه لم يغز الصين قط، غير أنه أجبر إمبراطورها على دفع الجزية للأمويين. وكانت هذه أقصى فتوحات المشرق. وقد بلغت بذلك

مساحة الأراضي التي ولي عليها (وهي ولاية خراسان وعاصمتها آنذاك مرو) أكثر من ٤,٠٠٠,٠٠٠ كيلومتر مربع، وبلغ طول حدودها أكثر من ٤,٠٠٠ كم. هذا وقد تولى محمد بن القاسم الثقفي في الوقت ذاته فتح إقليم السند، حيث سار في شهر ربيع الأول سنة ٨٩ هـ على رأس جيش قوامه ٦,٠٠٠ رجل، وفتح المدن وواجه داهر ملك السند في معركة نهر مهران، وانتصروا عليه وقتلوه، على الرغم من استعانة الهنود بالفيلة في تلك المعركة. وأخيرا فتح مدينة الملتان سنة ٩٤ هـ، وهي من أهم مدن تلك البلاد، وبذلك أتم فتح السند وضمت بدورها إلى الدولة الأموية.

ويذكر أن الفتوحات توقفت على حدود الصين بموت الحجاج وموت قتيبة بن مسلم وقال البعض لو كان الحجاج حيا لما ترك الصين حتى يفتحها.

لم تتوقف إنجازات الحجاج على الحروب والفتوح، إنما كانت له بصمات واضحة إلى يومنا هذا في مجالات أخرى، ولعل أجل إنجازاته هو أمره بتنقيط المصاحف، ورغب في أن يعتمد الناس على قراءة واحدة، وأخذ الناس بقراءة عثمان بن عفان، رضي الله عنه وأرضاه، وترك غيرها من القراءات، وكتب مصاحف عديدة موحدة وبعث بها إلى الأمصار.

لقد طلب الحجاج من الخليفة عبد الملك تعريب الدواوين، وإصدار الدراهم العربية وضبط معيارها، وقام الحجاج أيضا بإصلاح الزراعة في العراق بحفر الأنهار والقنوات وبنى مدينة واسط وأحيا الأرض الزراعية من خلال إعانة الفلاحين.

الحجاج والظلم

لقد وثق المؤرخون الكثير من المظالم ضد الحجاج ولعل أكبرها هو تسرعه في سفك دماء المسلمين بأدنى شبهه. وقال بعض أهل العلم بأن الحجاج كان يكفر المسلم إذا خرج على ولي الأمر ويرى أن قتله حلال، وكان يظن أنه يتقرب إلى الله بفعله هذا. لقد قتل عبد الله بن الزبير وصلبه،

وقتل التابعي الجليل سعيد بن جبير وخلقا كثيرا في حروبه، خصوصا في معركة دير الجماجم.

ماذا قال عنه العلماء؟

قال الذهبي: كان الحجاج ظلوما، جبارا خبيثا سفاكا للدماء، وكان ذا شجاعة وإقدام ومكر ودهاء وفصاحة وبلاغة وتعظيم للقرآن، فلا نسبه ولا نحبه، بل نبغضه في الله، فإن ذلك من أوثق عرى الإيمان. وله حسنات مغمورة ببحر ذنوبه، وأمره إلى الله وله توحيد في الجملة، ونظراء من ظلمة الجبابرة والأمراء. وقال الذهبي أيضا: عندي مجلد في أخبار الحجاج فيه عجائب كثيرة، ولكن لا أعرف مدى صحتها، أي أنها ربما تكون مبالغ بها .

قال ابن كثير: كان في الحجاج شهامة عظيمة وفي سيفه رهق، وكان يغضب غضب الملوك، وكان جبارا عنيدا مقداما على سفك الدماء بأدنى شبهة، وقد روي عنه ألفاظ بشعة شنيعة ظاهرها الكفر، فإن كان قد تاب منها وأقلع عنها، وإلا فهو باق في عهدتها، ولكن يخشى أنها رويت عنه بنوع من زيادة عليه .... وكان يكثر من تلاوة القرآن ويتجنب المحارم. ولم يشتهر عنه شيء من التلطخ بالفروج، وإن كان متسرعا في سفك الدماء. فلا نكفر الحجاج ولا نمدحه، ولا نسبه ونبغضه في الله بسبب تعديه على بعض حدود الله وأحكامه، وأمره إلى الله. وتحدث ابن كثير عن بعض من استعملهم الحجاج وكانوا ذوي سمعة طيبة، مثل عروة بن المغيرة بن شعبة، حيث ولاه الكوفة وقتيبة بن مسلم.

وقال أحمد بن أبي الحواري: سمعت أبا سليمان الداراني يقول: كان الحسن البصري لا يجلس مجلسا إلا ذكر فيه الحجاج فدعا عليه، قال: فرآه في منامه فقال له: أنت الحجاج؟ قال: أنا الحجاج. قال: ما فعل الله بك؟ قال: قتلت بكل قتيل قتلته، ثم عزلت مع الموحدين. قال: فأمسك عنه الحسن بعد ذلك.

قال محمد بن المنكدر: كان عمر بن عبد العزيز يبغض الحجاج فنفس عليه بكلمة قالها عند الموت: اللهم اغفر لي فإن الناس يزعمون أنك لا تفعل. وقال الأصمعي: لما حضرت الحجاج الوفاة أنشد يقول:

يا رب قد حلف الأعداء واجتهدوا بأنني رجل من ساكني النار
أيحلفون على عمياء ويحهم ما علمهم بكريم العفو غفار

وزاد بعضهم أنه قال:

إن الموالي إذا شابت عبيدهم في رقهم عتقوهم عتق أبرار
وأنت يا خالقي أولى بذا كرما قد شبت في الرق فاعتقني من النار

من مواقف الحجاج

لقد سجل التاريخ الكثير من المواقف والخطب والرسائل للحجاج، وهذا يدل على عظم نفوذه، وسنتحدث فقط عن اثنين من هذه المواقف. يذكر أنه ورد على الحجاج رجل اسمه سليك، فقال: عصى عاص من عرض العشيرة فمنعت العطاء وهدم منزلي وقبضوا علي، لان بيني وبينه صلة القرابة! فقال الحجاج أما سمعت قول الشاعر؟

جانيك من يجني عليك وقد تعدي الصحاح مبارك الجرب
ولرب مأخوذ بذنب عشيره ونجا المقارف صاحب الذنب

قال الرجل: أصلح الله الأمير، إني سمعت الله عز وجل يقول غير هذا. قال الحجاج ماذا قال، سبحانه: قال الرجل: (قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِندَهُ إِنَّا إِذًا لَّظَالِمُونَ) يوسف/ ٧٨/٧٩. فقال الحجاج علي بيزيد بن أبي مسلم! فمثل يزيد بين يديه، فقال: أطلقوا سراح هذا الرجل وردوا له عطائه وابنوا له بيته ومر مناديا ينادي أن صدق الله وكذب الشاعر- من كتاب العقد الفريد.

ويذكر أن الحجاج صلى يوما بجانب سعيد بن المسيب (قبل أن يلي شيئا من الحكم)، فجعل يرفع قبل الإمام ويقع قبله في السجود. فلما سلم أخذ سعيد بطرف ردائه، وكان له ذكر بعد الصلاة، فما زال الحجاج ينازعه بردائه حتى قضى سعيد ذكره. ثم قال له سعيد: يا سارق، يا خائن! تصلي هذه الصلاة؟ لقد هممت أن أضرب بهذا النعل وجهك. فلم يرد عليه الحجاج. ثم مضى الحجاج إلى الحج، فعاد إلى الشام، ثم جاء حاكما على الحجاز. وعندما قتل ابن الزبير، رجع إلى المدينة نائبا عليها، أي حاكما لها. فلما دخل المسجد رأى سعيد بن المسيب، فقصده وخشي الناس عليه. جاء الحجاج حتى جلس بين يديه، فقال له: أنت صاحب الكلمات؟ فضرب سعيد صدر الحجاج بيده، وقال: نعم. قال: فجزاك الله من معلم ومؤدب خيرا، فما صليت بعدك صلاة إلا وأنا أذكر قولك، ثم قام ومضى. وفي هذه الحديث إشارة إلى أن الحجاج كان قاسيا في تعامله لكنه أيضا رضي القسوة على نفسه عندما أخطأ في الصلاة.

فصاحة الحجاج وحبه للقرآن والشعر

نشأ الحجاج شابا فصيحا ذكيا، وكان يعلم القرآن في الطائف، ويكثر من تلاوته. وذكر بعض المؤرخون أن عمر بن عبد العزيز قال: ما حسدت الحجاج على شيء حسدي إياه على حبه القرآن، وإعطائه أهله، وقوله حيث حضرته الوفاة اللهم اغفر لي، فإن الناس يزعمون أنك لا تفعل. وقال بعض السلف أنه كان يختم القرآن كل ثلاثة ليال. وكان يحب الشعر ويستشهد به وله أشعار متفرقة.

قال أبو عمرو بن العلاء: ما رأيت أفصح من الحسن البصري والحجاج بن يوسف، ولكن الحسن أفصح. وقال الشعبي: سمعت الحجاج يتكلم بكلام ما سبقه إليه أحد، سمعته يقول: أما بعد، فإن الله عز وجل كتب على الدنيا الفناء، وعلى الآخرة البقاء، فلا فناء لما كتب عليه البقاء ولا بقاء لما كتب عليه الفناء، فلا يغرنكم شاهد الدنيا من غائب الآخرة، فطول الأمل يقصر الأجل....إلخ - من كتاب مروج الذهب.

وقال الدارقطني إن عتبة بن عمرو قال: ما رأيت عقول الناس إلا قريبا بعضها من بعض، إلا الحجاج وإياس بن معاوية، فإن عقولهما كانت ترجح على عقول الناس.

خاتمة

ترك الحجاج قبل أن يموت وصية كتب فيها، بسم الله الرحمن الرحيم، هذا ما أوصى به الحجاج بن يوسف: أوصى بأنه يشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمدا عبده ورسوله، وأنه لا يعرف إلا طاعة الوليد بن عبد الملك، عليها يحيا وعليها يموت وعليها يبعث... إلخ. ويروى أنه قيل له قبل وفاته: ألا تتوب؟ فقال: إن كنت مسيئا فليست هذه ساعة التوبة، وإن كنت محسنا فليست ساعة الفزع. يذكر أن أهل الشام كانوا يحبون الحجاج وينصرونه ويترحمون عليه، وكان جل جيشه من أهل الشام، وكان هو أيضا محبا لهم وكثير الإشادة في خصالهم.

أصيب الحجاج آخر حياته بمرض شبيه بسرطان المعدة وتوفي في مدينة واسط خلال العشر الأخيرة من رمضان، ٩٥ هـ/ ٧١٤ م، ودفن بها في مكان غير معروف. وتفجع عليه الوليد، وجاء إليه الناس من كل الأمصار يعزونه في موته. اللهم اغفر للمؤمنين والمؤمنات والمسلمين والمسلمات الأحياء منهم والأموات.

جرير

حياته ونسبه

هو جرير بن عطية بن حذيفة الخطفي التميمي. ولد في خلافة عثمان بن عفان، رضي الله عنه وأرضاه، سنة ٢٨ هـ /٦٤٨ م. نشأ في بيت فقير وكان يرعى الأغنام في صغره وقال الشعر منذ نعومة أظفاره وعاش شبابه في منطقة اليمامة، شمال الرياض الآن. توجه إلى البصرة بعد دخولها تحت مظلة الحكم الأموي وكان الفرزدق يعيش فيها أيضا، حيث نشبت بينهما حربا أدبية في الهجاء استمرت إلى وفاة الفرزدق، عندها رثاه جرير بقصيدة مؤثرة. مدح جرير حكام البصرة والكوفة مثل بشر بن مروان والحجاج بن يوسف الثقفي وكان الحجاج هو من قدمه للخليفة عبد الملك بن مروان. كان جرير شديد الولاء للأمويين خلافا لموقف قبيلته التي والت عبد الله بن الزبير، رحمه الله. مدح أيضا الوليد وسليمان، ابني عبد الملك بن مروان ويزيد بن عبد الملك وهشام بن عبد الملك. كان عفيفا ومن أجود الناس شعرا وفاق جميع شعراء عصره ولم يثبت بوجهه سوى الفرزدق والأخطل.

مجالسة عبد الملك والحجاج

كان الخليفة عبد الملك بن مروان يحب الشعر ويجلس كثيرا مع الشعراء ليسمع قصائدهم وكذلك الحجاج كان محبا للأدب والشعر وكان من أفصح الناس لسانا لذا كان محبا لمجالسة الشعراء وأهل اللغة. لقد مدح جرير الحجاج ذات يوم فأعجب بشعره وقدمه إلى الخليفة. وذكر أن جريرا والفرزدق كانا في مجلس الحجاج وكان بين يدي الحاج جارية، وقيل بعض المال، فقال لهم أيكم مدحني ببيت أفضل فهذه جائزته: فقال الفرزدق:

فمن يأمن الحجاج والطير تتقي عقوبته إلا ضعيف العزائم

ثم قال جرير:

فمـــن يأمـــن الحجـــاج أمـــا عقابـــه فمـــر وأمـــا عهـــده فوثيـــق

فوقع اختيار الحجاج على البيت الثاني، فأعطى الجائزة لجرير.

بعـد أن قدمـه الحجـاج إلى عبد الملـك، مدحه بكثير مـن القصائد. وقيل إن أفضـل بيـت في المـدح هو بيت جريـر، الذي قالـه ببني أمية:

ألســـتم خـــير مـــن ركـــب المطايـــا وأنـــدى العالمـــين بطـــون راح

وتعنـي بطـون راح أن بنـي أميـة دائمـا أيديهم مبسـوطة للعطـاء. وذكر أن عبـد الملـك بـن مـروان قـد أعـد وليمـة ذات يـوم ودعا إليهـا، فقال عبـد الملك لرجـل مـن بنـي عـذرة: هـل لـك علـم بالشـعر؟ فقـال: سـلني عـما بدا لـك يا أمـير المؤمنـين. قـال: مـن قـال أبلغ بيـت في المدح؟ فقـال العذري: قـول جرير:

ألســـتم خـــير مـــن ركـــب المطايـــا وأنـــدى العالمـــين بطـــون راح

قال عبد الملك وفي الفخر؟ فقال قول جرير:

إذا غضبـــت عليـــك بنـــي تميـــم حســـبت النـــاس كلهـــم غضابـــا

قال وفي الهجاء: قال قول جرير:

فغـــض الطـــرف إنـــك مـــن نمـــير فـــلا كعبـــا بلغـــت ولا كلابـــا
ولـــو وزنـــت حلـــوم بنـــي نمـــير عـــلى الميـــزان مـــا وزنـــت ذبابـــا

قال وفي الغزل: قال قول جرير:

إن العيـــون التـــي في طرفهـــا حـــور قتلننـــا ثـــم لم يحيـــين قتلانـــا
يصرعـــن ذا اللـــب حتـــى لا حـــراك بـــه وهـــن أضعـــف خلـــق اللـــه أركانـــا

قال وفي التشبيه: قال قول جرير:

سرى نحوهـــم ليـــل كأن نجومهـــم قناديـــل فيهـــن الذبـــال المفتـــل

ويشـير الشـطر الثـاني مـن البيـت إلى النور القوي لهـذه القناديـل، والذبال تعنـي الفتيلـة. وقـد سـمع جريـر قـول العـذري لأنه كان جالسـا معهـم فسره

ذلـك كثـيرا، وقـال جائـزتي للعـذري يا أمـير المؤمنين. قـال أمير المؤمنـين وله منا مثلهـا ولـك منا جائـزة أيضا يـا جرير.

شعره

اشـتهر جريـر في مختلـف أصناف الشـعر كالغـزل والوصف والمـدح والفخر والهجـاء، وقلـما اجتمعـت هذه الخصال لشـاعر. وقـدم كثير مـن الأبيات التي وصفـت بأنهـا أفضـل ما قالتـه العرب من شـعر، ولا يزال الكثير يـرددون أبياته وقصائـده منـذ العـصر الأمـوي حتى يومنا هـذا، وهنا نذكـر بعض أبياتـه في الغزل:

إن العيــون التــي في طرفهــا حــور قتلننــا ثــم لم يحيــين قتلانــا
يصرعــن ذا اللــب حتــى لا حــراك بــه وهــن أضعــف خلــق اللــه أركانــا
يــا حبــذا جبــل الريــان مــن جبــل وحبــذا ســاكن الريــان مــن كانــا

لـه أيضـا ديـوان كامـل قيـم فيـه الكثـير مـن القصائـد الممتعـة وهـو محل إعجـاب الكثـير مـن الأدبـاء والمهتمـين بالشـعر. وقـال جريـر في رثـاء زوجتـه:

لــولا الحيــاء لهاجنــي استــعبار و لــزرت قــبرك والحــبيب يــزار
ولقــد نظــرت ومــا تمتــع نظــرة في اللحــد حيــث تمكــن المحفــار
فجــزاك ربــك في عشــيرك نظــرة وســقى صــداك مجلجــل مــدرار
ولهــت قلبــي إذ علتنــي كــبرة وذوو التمائــم مــن بنيــك صغــار

إلى آخر القصيدة، وقد وصفت هذه القصيدة بأنها من أفضل ما قيل في الرثاء.

جرير والفرزدق

الفـرزدق هـو هـمام بن غالـب بن صعصعـة التميمـي الدارمـي وكنيته أبو فـراس، وهـو مـن نفـس قبيلـة جريـر. وهو من فحـول الشـعراء أيضـا وكان له عظيـم الأثـر في اللغـة والشـعر، وكان في سـجال دائـم مـع جريـر طـوال فـترة

حياتهم، نتيجة المنافسة الشديدة بينهما. وكان شعر جرير يمتاز بالسلاسة والبساطة وامتاز شعر الفرزدق بالقوة والجزالة. وأحيانا يجتمع الاثنان في مجلس عبد الملك بن مروان، وذات يوم تنافسا في حضرة عبد الملك، فقال الفرزدق:

أنا القطران والشعراء جربى وفي القطران للجربى شفاء

فرد عليه جيري قائلا:

أنا الموت الذي أتى عليكم فليس لهارب منه نجاء

فقال عبد الملك: الموت يأتي على كل شيء، وأعطى جائزة لجرير.

يحكى أن جريرا اجتمع مع الفرزدق في مجلس عبد الملك، أيضا فقال الفرزدق: النوار بنت مجاشع، أي زوجته، طالق ثلاثا إن لم أقل بيتا لا يستطيع ابن المراغة أن ينقضه أبدا ولا يجد في الزيادة عليه سبيلا. فقال عبد الملك: ما هو، فقال الفرزدق:

فإني أنا الموت الذي هو واقع بنفسك فانظر كيف أنت مزاوله
وما أحد يا بن الأتان بوائل من الموت إن الموت لاشك نائله

فأطرق جرير قليلا ثم قال: أم حرزة طالق ثلاثا إن لم أكن نقضته وزدت عليه. فقال عبد الملك: قل، فقد والله، طلق أحدكما لا محالة!

فقال جرير:

أنا البدر يعشى نور عينيك فالتمس بكفيك يا بن القين هل أنت نائله
أنا الدهر يفني الموت والدهر خالد فجئني بمثل الدهر شيئا يطاوله

أعجب عبد الملك بقول جرير وأمر الفرزدق أن يطلق بعد أن تردد في ذلك، فطلقها وقال في ذلك:

ندمت ندامة الكسعي لما غدت مني مطلقة نوار
وكانت جنتي فخرجت منها كآدم حين أخرجه الضرار
فأصبحت الغداة ألوم نفسي بأمر ليس لي فيه خيار

عـلى الرغم من المنافسـة الشـديدة بين جريـر والفرزدق فقد رثـاه بقصيدة رائعـة عنـد موته. وتشـير هذه القصيدة إلى الشـيمة والأخـلاق العربية الأصيلة التـي كان يتمتـع بهـا جريـر، لأن مـن يسـمع هجـاء كل منهـما للآخـر يظن أن كل واحـد منهـم سيشـمت بمـوت غريمـه ويتمنـاه، ولكـن جريـر أثبـت عكس ذلـك، فقال:

لعمـري لقـد أشـجى تميمـا وهدهـا ... عـلى نكبـات الدهـر مـوت الفـرزدق
لقـد غـادروا في اللحـد مـن كان ينتمـي ... إلى كل نجـم فـي السمـاء محلـق
عمـاد تميـم كلهـا ولسانهـا ... وناطقهـا البـذاخ فـي كـل منطـق
فمـن لـذوي الأرحـام بعـد أبـن غالـب ... لجـار وعـان في السلاسـل موثـق
ومـن ليتيـم بعـد مـوت ابـن غالـب ... وأم عيـال ساغبيـن ودردق
تفتـح أبـواب الملـوك لوجهـه ... بغيـر حجـاب دونـه أو تملـق
لتبـك عليـه الأنـس والجـن إذ ثـوى ... فتـى مـضر في كل غـرب ومشـرق
فتـى عـاش يبنـي المجـد تسـعين حجـة ... وكان إلى الخـيرات والمجـد يرتـق

خاتمة

تـوفي جريـر، رحمـه اللـه، سـنة ١١٠ للهجـرة في منطقـة اليمامـة التـي ولـد بهـا. وكانـت وفاتـه بعـد مـوت الفـرزدق بشـهور قليلة.

قيس بن الملوح وليلى العامرية

لا تخفى قصة مجنون ليلى وليلى على أحد، فقد أصبحت مثالا تذكره العرب على مر العصور، ولكن العادات والتقاليد العربية وقفت حائلا بين ليلى ومجنونها؛ لذا لم يكتب التوفيق لهم ومات كل منهما بعيدا عن الآخر، وكانت ليلى سبب في وصف قيس بالمجنون.

حياتهم ونسبهم

شاعرنا في هذه المقالة هو قيس ابن الملوح بن مزاحم بن عدس بن ربيعة بن عامر بن صعصعة من قبيلة هوازن. ولد سنة ٢٤ هـ / ٦٤٥م، وهو أحد الشعراء المشهورين وخاصة في الغزل وشعره الذي كرسه لليلى تحديدا. هو من أهل نجد وعاش خلال خلافة مروان بن الحكم وعبد الملك بن مروان. لقب بالمجنون، رغم أنه لم يكن كذلك، بل كان متيما بليلى التي نشأ معها ورعوا المواشي سوية عندما كانوا صغارا ولما كبروا رفض والد ليلى أن يزوجها إياه. وأما ليلى فهي بنت مهدي بن مزاحم وتكنى بأم مالك. ولدت في نجد سنة ٢٨ هـ / ٦٤٩م.

قيس وليلى

تربت ليلى مع قيس وهم صغار وكانا يرعيان مواشي والديهما، وعندما كبرت منعت من الاختلاط به لأن عادات العرب كان تمنع اختلاط الرجال بالنساء عندما يكبرن وينضجن. بدأ قيس يتعلق بها أكثر فأكثر منذ حجبت عنه وازداد هيامه بها وخطبها فيما بعد وقدم لها مهرا عظيما ولكن والد ليلى رفض الزواج لأنه شبب بها. وكانت عادة العرب أن يرفضون تزويج البنات لمن يشبب بهن، أي يقول فيهن شعر الغزل. وكانوا يرفضون أيضا أن

يزوجـوا البنـات للشـباب الـذي يعلنـون حبهم لهـن. هام قيس في الـبراري بعد أن رفـض طلبـه وبـات ينشـد القصائـد في حبهـا ويعـبر عنـه أكثر مـن ذي قبل. وفي هـذه الأثنـاء تقـدم لليـلى رجـل من ثقيف يدعـى ورد بن محمـد العقيلي. انتهـز والـد ليـلى الفرصـة وزوجهـا لورد حتـى يقطـع الطريق على قيـس، رغم أن ليـلى لم توافـق عـلى هـذا الـزواج، ولكـن أرغمـت عليـه. هـام قيـس عـلى وجهـه بعـد زواج ليـلى وكان يظهـر أحيانـا في الشـام وأخـرى في الحجـاز أو في أماكـن أخـرى. وبعـد حـين وجد ميتـا فحمـل إلى منطقته ودفـن بها.

يذكـر أن والـد قيـس اصطحبـه إلى الحـج لـكي يدعـو اللـه أن يشـفيه مـما أصابـه بسـبب حبـه لليـلى، وقـال له أبـوه: تعلق بأسـتار الكعبـة وأدع ربك أن يشـفيك مـما أنـت فيـه. ففعل قيـس هذا ولكنـه دعا قائـلا : اللهـم زدني لليلي حبـا وبهـا كلفـا ولا تنسـني ذكرهـا أبـدا. وكانـت ليـلى تبادلـه نفـس المشـاعر لكـن والدهـا وقـف حائلا أمامـه، ونظمت بعـض القصائد التي تعـبر عن حبها لقيس .

الغزل العذري أو الغزل العفيف

هـو أحـد الفنـون الشـعرية التـي تظهـر فيـه المشـاعر العفيفـة والصادقـة، ويسـتبعد هـذا النوع من الشـعر وصف المحاسـن الجسـدية ويركـز فقط على المشـاعر المرهفـة التـي تعبر عن صدق الأحاسـيس. ويعد قيس بـن الملوح أبرز شـعراء الغـزل العـذري. وسـمي بالغـزل العـذري نسـبة إلى قبيلـة عـذرة التـي اشـتهرت بكـثرة العشـاق ورقـة أحاسيسـهم، حيـث مـات بعضهـم مـن الوجد. وتعـود بداياتـه إلى العـصر الجاهـلي وتراجـع في عـصر صـدر الإسـلام بسـبب التقـوى والـورع الـذي انتـشر بـين النـاس والتزامهـم بتعاليـم ديننـا الحنيـف، ولكنـه عـاد للظهـور مرة أخـرى في العصر الأموي بعد انتشـار الـترف والرفاهية بـين الكثـير مـن الناس.

كان أصحاب الحب العذري يثبتون عليه حتى الموت ويبقى متوقدا في صدورهم حتى وإن تزوجت المحبوبة من شخص آخر. قال قيس:

أما عاهدتني يا قلب أني إذا ما تبت عن ليلى تتوب
فها أنا تائب عن حب ليلى فما لك كلما ذكرت تذوب

وقالت ليلى في قيس:

باح مجنون عامر بهواه وكتمت الهوى فمت بوجدي

ويقول عنترة العبسي في عبلة:

ولولاها فتاه في الخيام مقيمة لما اخترت قرب الدار يوما على البعد
مهفهفة والسحر في لحظاتها إذا كلمت ميتا يقوم من اللحد
أشارت إليها الشمس عند غروبها تقول إذا اسود الدجى فاطلعي بعدي

شعر قيس وليلى

يتعلق جل شعر قيس بليلى، وكتب فيها الكثير من القصائد وتبوأ منزلة الشاعر الأول في الغزل العذري، وقيل إنه ذهب ذات يوم إلى زوج ليلى، ورد، في يوم شتوي قارص برده ووجد معه نفرا من قومه جالسين بداره، فأنشده قيس قائلا:

بربك هل ضممت إليك ليلى قبيل الصبح أو قبلت فاها
وهل رفت عليك قرون ليلى رفيف الأقحوانة في نداها
كأن قرنفلا وسحيق مسك وصوب الغانيات قد شملن فاها

فقال له ورد: أما وقد حلفتني، فنعم. فقبض المجنون بكلتا يديه على النار ولم يتركها حتى سقط مغشيا عليه. وأنشد قصيدة رائعة سميت بالمؤنسة لأنه كان يرددها كثيرا ويأنس بها، سنذكر بعض أبياتها:

تذكرت ليلى والسنين الخواليا وأيام لا نخشى على اللهو ناهيا
بثمدين لاحت نار ليلى وصحبتي بذات الغضى تزجي المطي النواجيا
فقال بصير القوم ألمحت كوكبا بدا في سواد الليل فردا يمانيا
فقلت له بل نار ليلى توقدت بعليا تسامى ضوؤها فبدا ليا

فليت ركاب القوم لم تقطع الغضى ... وليت الغضى ماشى الركاب لياليا
فيا ليلى كم من حاجة لي مهمة ... إذا جئتكم بالليل لم أدر ما هيا
وقد يجمع الله الشتيتين بعدما ... يظنان كل الظن أن لا تلاقيا
لحى الله أقواما يقولون إننا ... وجدنا طوال الدهر للحب شافيا
فيا رب سوي الحب بيني وبينها ... يكون كفافا لا علي ولا ليا
ولا سرت ميلا من دمشق ولا بدا ... سهيل لأهل الشام إلا بدا ليا
فإن تمنعوا ليلى وتحموا بلادها ... علي فلن تحموا علي القوافيا
أحب من الأسماء ما وافق اسمها ... أو أشبهه أو كان منه مدانيا
خليلي إن ضنوا بليلى فقربا ... لي النعش والأكفان واستغفرا ليا
وإن مت من داء الصبابة فأبلغا ... شبيهة ضوء الشمس مني سلاميا

وقد كانت ليلى تبادله نفس المشاعر، فقالت فيه:

كلانا مظهر للناس بغضا ... وكل عند صاحبه مكين
تبلغنا العيون بما أردنا ... وفي القلبين ثم هوى دفين
وأسرار اللواحظ ليس تخفى ... وقد تغري بذي الخطأ الظنون
وكيف يفوت هذا الناس شيء ... وما في الناس تظهره العيون

وقالت:

نفسي فداؤك لو نفسي ملكت إذا ... ما كان غيرك يجزيها ويرضيها

وفاتهما

توفي سنة ٦٨ هـ/٦٨٨م، ووجد ملقى بين أحجار وهو ميت، فحمل إلى أهله. ووجدوا بيتين من الشعر عند رأسه خطهما بيده:

توسد أحجار المهامه والقفر ... ومات جريح القلب مندمل الصدر
فيا ليت هذا الحب يعشق مرة ... فيعلم ما يلقى المحب من الهجر

وقيل إن ليلى توفيت قبله بقليل ولم يذكر تاريخ وفاتها.

الفصل الرابع

العصر الأندلسي

بـدأ العـصر الأندلـسي خـلال حكـم بنـي أميـة ومـن بعدهـم مـن ملـوك الطوائـف والمرابطـين والموحديـن وذلك منذ عام ٧١١ حتـى عام ١٤٩٢م، حيث اسـتمر زهـاء ثمانيـة قـرون. وقد ازدهـر كثيرا في عهـد أبي المطـرف عبدالرحمن الداخـل وخلفائـه. لقـد تأثر الشـعراء الأندلسـيون بجـمال الطبيعـة وكان ذلك عامـلا إيجابيـا ومحفـزا للشـعراء حيـث أبـرزوا جـمال الطبيعـة مـن خـلال قصائدهـم ووصفـوا الريـاض والقصـور التـي اشـتهرت فيهـا الأندلـس.

نظـم الأندلسـيون القصائـد الشـعرية في مختلـف ألوان الشـعر بمـا في ذلك الجوانـب التقليديـة مثـل المـدح والغـزل والهجـاء والرثاء وتوسـعوا في موضوع الرثـاء خاصـة في رثـاء المـدن الأندلسـية التـي بـدأت بالتسـاقط واحـدة تلـو الأخـرى في نهايـة هـذا العصر.

وقـد بـرزت ظاهـرة المجـون نهايـة العصر الأندلـسي إذ لم يظهـر خلال عهد الدولـة الأمويـة في الأندلـس لأن الدولـة وجيشـها كانـا مشـغولين في الفتوحات الإسـلامية والحـروب المتكـررة إضافـة إلى قوة الـوازع الديني بين النـاس، ولكن هـذه الظاهـرة تجلـت في عهد ملـوك الطوائف وربما كانت السـبب وراء انهيار الحضـارة الإسـلامية في الأندلس.

لقـد توفـرت العديد من العوامل التي سـاهمت في ازدهـار الأدب الأندلسي منهـا الاسـتقرار والرفـاه الـذي عاش فيـه الأندلسـيون والاحتكاك مـع الحضارة الغربيـة وانتشـار الحريـة الفكريـة والانفتـاح عـلى العلـوم والثقافـات الأخرى عـن طريـق الترجمة وكذلـك تعلق الحكام الأندلسـيون بالمعرفـة ومحبتهم لها، وتشـجيعهم العلـماء عـلى نـشر العلـم. اشـتهر عدد كبير مـن الشـعراء والأدباء في بـلاد الأندلـس وسـاهم طـول الفـترة الزمنيـة بزيادتهم زيـادة ملحوظة ومن هـؤلاء الشـعراء صقر قريش عبدالرحمـن الداخل وأبو البقـاء الرندي والمعتمد بـن عباد ويوسـف الثالـث أمير غرناطـة وغيرهم.

صقر قريش وابن زيدون

نمضي مع جولة جديدة في أرجاء التاريخ والأدب نتنقل فيها من صقور الشرق كالحجاج وجرير وأبو الأسود الدؤلي إلى صقور الغرب كصقر قريش عبد الرحمن الداخل وابن زيدون.

صقر قريش

هو أبو المطرف عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان بن الحكم بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصي بن كلاب. ولد أبو المطرف سنة ١١٣ هـ/٧٣١م. وعاش يتيما في البيت الأموي برعاية جده أمير المؤمنين هشام بن عبدالملك، لأن والده توفي قبل أن يتجاوز عبد الرحمن السنة السادسة، ويعرف في المصادر الأجنبية بلقب عبد الرحمن الأول. سمي بالداخل لأنه أول من دخل الأندلس من ملوك الأمويين وأسس عبد الرحمن الدولة الأموية في الأندلس عام ١٣٨هـ وذلك بعد أن هرب من بني العباس بعد سقوط الدولة الأموية في دمشق عام ١٣٢هـ حيث بدأ العباسيون بتقتيل جميع الأمراء الأمويين وأبنائهم وأحفادهم حتى لا يتمكن منهم أحد من استرداد الخلافة يوما من الأيام. لقد دخل الأندلس وهي تؤج بالنزاعات القبلية والتمرد على الولاة، فقضى عبد الرحمن في فترة حكمه التي استمرت ٣٣ عاما على هذه الفتن ونجح في إخضاع الثورات المتكررة على حكمه في شتى أرجاء الأندلس، تاركا لخلفائه إمارة استمرت لنحو ثلاثة قرون.

لقد روى جابر بن عبد الله الأندلسي أن عبد الرحمن بن معاوية سار من مصر فصار إلى أرض برقة، فأقام بها خمس سنين، ثم رحل منها إلى الأندلس. وقبل دخول الأندلس أرسل مولاه بدر لينقل له أخبارها. وبعد ذلك قال بدر للمضرية: لو وجدتم رجلا من أهل الخلافة أكنتم تبايعونه؟

قالوا: وكيف لنا بذاك؟ فقال بدر: هذا عبد الرحمن بن معاوية. فأتوه فبايعوه، فولي عليهم ثلاث وثلاثين سنة، ثم ولى ابنه من بعده في خلافة استمرت إلى رأس المائة الرابعة.

عندما دخل صقر قريش الأندلس، كان يوسف الفهري أول من قطع الدعوة عنهم ودعا لنفسه فقاتله الداخل فيما بعد وانتصر عليه. وعندما توجه عبد الرحمن إلى يوسف الفهري مضى بجيش إلى إشبيلية، فأطاعه أهلها أيضا، ثم مضى إلى قرطبة فاستولى عليها، فكان كلما قصد مدينة بايعوه. فلما رأى يوسف أن العساكر قد أظلته هرب وتحصن في دار الشرك، فغزاه الداخل مرة أخرى وهرب يوسف، وجعل الداخل لمن يأتيه برأس يوسف مالا، فأتاه رجل من خاصة يوسف برأسه. هذا وقد قامت الكثير من الفتن والثورات خلال عهده مثل ثورة ابن حبيب وسليمان الأعرابي وغيرها ولكن الداخل نجح بإخمادها جميعا.

انجازات الداخل وسياسته

انتهج الداخل سياسة أسلافه الأمويين في الحكم، حيث احتفظ بمجموعة من المستشارين ولم يتخذ وزراء. وقد أولى الجيش اهتماما كبيرا فمكنه من السيطرة على مقاليد الحكم، وقيل إن جيشه بلغ مائة ألفا أو يزيد. ويعد أحد أهم إنجازاته استعادة الأندلس، وقد قال بعض العلماء والمؤرخين بإن الإسلام كاد أن يخرج من الأندلس لولا فضل الله ثم همة صقر قريش.

شيد الداخل خلال فترة حكمه القصور والحدائق وغرس في أرض الأندلس أشجارا لم تكن موجودة من قبل، وكان قد جلبها من الشام وإفريقية. وأقام سور قرطبة الكبير في عام ١٥٠هـ، وأسس المسجد الجامع في قرطبة عام ١٧٠ هـ، وأنشأ دارا لسك العملة شبيهة بدار دمشق من حيث وزن ونقش العملة.

ماذا قال عنه العلماء؟

قال أبو عبد الله الحميدي: كان عبد الرحمن من أهل العلم على سيرة جميلة من العدل، ومن قضاته معاوية بن صالح الحضرمي الحمصي.

قال أبو مظفر الأبيوردي: كانوا يقولون ملك الدنيا ابنا بربريتين، يعنون الخليفة العباسي المنصور وعبد الرحمن الداخل، لأن أم كل منهما كانت بربرية.

قال أبو محمد بن حزم: أقام عبد الرحمن في بلاده يدعو بالخلافة لأبي جعفر المنصور أعواما، ثم ترك الخطبة. وقال آخرون تركها بعد أن ألح عليه بعض حاشيته وقادته. وقيل أيضا، لما توطد ملك عبد الرحمن، سارت إليه بنو أمية من كل ناحية، فأكرم موردهم وأمن أرزاقهم، ولم يهجه بنو العباس، ولا هو تعرض لهم، بل قنع بإقليم الأندلس. ويذكر أن عبد الرحمن لم يكن يطمح بالخلافة وكان يرى أنه لا يستحق الخلافة إلا من يحكم بلاد الحرمين. وفي زمنه دخل الغازي بن قيس الأندلس بموطأ مالك وبقراءة نافع بن أبي نعيم.

أطلق الخليفة العباسي أبو جعفر المنصور لقب «صقر قريش» على الداخل عندما سأل من كان في مجلسه قائلا: أتدرون من هو صقر قريش؟ قالوا أمير المؤمنين! أي أبو جعفر، فقال: لا. قالوا: معاوية! قال المنصور: لا. قالوا: عبد الملك بن مروان! قال: ولا هذا. قالوا: فمن يا أمير المؤمنين! قال: عبد الرحمن بن معاوية، الذي تخلص بكيده من الأسنة والسيوف، يعبر القفر، ويركب البحر، حتى دخل بلدا أعجميا فمصر الأمصار وجند الأجناد وأقام ملكا بعد انقطاعه، بحسن تدبيره وشدة عزمه. إن معاوية نهض بمركب حمله عليه عمر وعثمان، رضي الله عنهما. وعبد الملك ببيعة تقدمت له، وأمير المؤمنين، المنصور، باجتماع عترته، أي عشيرته، وعبد الرحمن منفردا بنفسه.

شعره

لقد بذل أبو المطرف جهودا جبارة لينجو من العباسيين ومكث أكثر من خمس سنين متخفيا في طريقه إلى الأندلس، وكان دائما يتذكر هذ الجهود والمعاناة ويغضب ممن ينساها أو يتناساها ويقول بإن الداخل ملك الأندلس نتيجة حظه الطيب وسعده ومساعدة بعض الأشخاص له لأنه كان سليل الخلفاء الأمويين، وقال في ذلك:

لا يلف ممتن علينا قائل ... لولاي ما ملك الأنام الداخل
سعدي وحزمي والمهند والقنا ... ومقادر بلغت وحال حائل
إن الملوك مع الزمان كواكب ... نجم يطالعنا ونجم آفل
والحزم كل الحزم أن لا يغفلوا ... أيروم تدبير البرية غافل
ويقول قوم سعده لا عقله ... خير السعادة ما حماها العاقل
أبني أمية قد جبرنا كسركم ... بالغرب رغما والسعود قبائل
ما دام من نسلي إمام قائم ... فالملك فيكم ثابت متواصل

وقد رويت عن الداخل بعض القصائد وكان معظمها يحمل حنينا للوطن وشوقا كبيرا للشام. ومن هذه القصائد:

أيها الراكب الميمم أرضي ... أقر من بعضي السلام لبعضي
إن جسمي كما علمت بأرض ... وفؤادي ومالكيه بأرض
قدر البين بيننا فافترقنا ... فطوى البين عن جفوني غمضي
وقضى الله بالفراق علينا ... فعسى باجتماعنا الله يقضي

وهذه الأبيات تبين شوق الداخل للشام وأهلها وحنينه إلى الديار التي قدر الله أن يفارقها، وتشير إلى أنه لا يزال محبا للشام وكذلك كان أهل الشام محبين للأمويين، ومازالوا إلى يومهم هذا. توفي الداخل، رحمه الله، سنة ١٧٢ هـ/٧٨٨ م.

ابن زيدون

حياته

هو أحمد بن عبد الله بن أحمد بن غالب بن زيدون، أبو الوليد المخزومي الأندلسي القرطبي. قال ابن بسام: كان أبو الوليد خاتمة شعراء بني مخزوم، وهو أحد من جر الأيام جرا، وفاق الأنام طرا، ووسع البيان نظما ونثرا، إلى أدب ليس للبحر تدفقه، ولا للبدر تألقه، وشعر ليس للسحر بيانه، ولا للنجوم اقترانه.

ولد سنة ٣٩٤هـ/١٠٠٣م في قرطبة. وانتقل بعد أن أصبح من فحول الشعراء، في ذلك الوقت عن قرطبة، إلى المعتضد بن عباد، صاحب اشبيلية، بعد عام أربعين وأربع مائة، فجعله من خواصه، وبقي معه بمرتبة وزير.

شعره

اشتهر ابن زيدون في الشعر والنثر والخطابة والبلاغة، ويذكر أن ابن زيدون أحب الشاعرة والأديبة ولادة، ابنة الخليفة المستكفي، التي كانت تعقد الندوات والمجالس الأدبية والشعرية في بيتها، وكتب فيها الكثير من القصائد مما زاد شعره تألقا وروعة. وهنا نذكر بعض الأبيات من قصائده في ولادة:

إني ذكرتك بالزهراء، مشتاقا والأفق طلق ووجه الأرض قد راقا
وللنسيم اعتلال في أصائله كأنه رق لي فاعتل إشفاقا
والروض عن مائه الفضي مبتسم كما شققت عن اللبات أطواقا
نلهو بما يستميل العين من زهر جال الندى فيه، حتى مال أعناقا

ومن خلال هذه الندوات الشعرية اتصلت ولادة بالشاعر ابن زيدون فأحبها حبا كبيرا ولكنه لم يدم طويلا، لأن ابن زيدون كان قد تعلق بإحدى جواري ولادة وربما كان ذلك لإثارة غيرة ولادة لكنها غضبت عليه وكانت سبب في الفراق وعاتبته ولادة قائلة:

لـو كنـت تنصـف في الهـوى مـا بيننـا ... لم تهـو جاريتـي ولم تتخـير
وتركـت غصنـا مثمـرا بجمالـه ... وجنحـت للغصـن الـذي لم يثمـر
ولقـد علمـت بأننـي بـدر السـما ... لَكـن دهيـت لشـقوتي بالمشـتري

وبعـد هـذا الموقـف تقربـت ولادة مـن الرجل الـثري وهو الوزيـر أبو عامر بـن عبـدوس وقطعـت علاقتهـا بابن زيـدون. عندها حـاول ابن زيـدون إعادة علاقتـه مـع ولادة عـلى ما كانـت عليه وكتب نونيته الشـهير كي يسـتدر عطفها حيث قـال فيها:

أضحـى التنـائي بديـلا عـن تدانينـا ... ونـاب عـن طيـب لقيانـا تجافينـا
ألا وقـد حـان صبـح البـين صبحنـا ... حـين فقـام بنـا للحـين ناعينـا
أن الزمـان الـذي مـازال يضحكنـا ... أنسـا بقربهـم قـد عـاد يبكينـا
وقـد نكـون ومـا يخـشى تفرقنـا ... فاليـوم نحـن ومـا يرجـى تلاقينـا
يـا ليـت شـعري ولم نعتـب أعاديكـم ... هـل نـال حظـا مـن العتبـى أعادينـا
لم نجـف أفـق جـمال أنـت كوكبـه ... سـالين عنـه ولم نهجـره قالينـا

وكل ذلـك لم يجـد نفعـا، وكانـت ثمـرة هـذا الفـراق قصائـد رائعـة منهـا القصيـدة السـابقة وكذلـك تحفـة أدبيـة أخـرى انطـوت عـلى عتـاب لصديقـه الوزيـر ابـن عبـدوس قـال فيهـا:

أثـرت هزبـر الـشرى إذ ربـض ... ونبهتـه إذ هـدا فاغتمـض
ومـا زلـت تبسـط مسترسـلا ... إليـه يـد البغـي لمـا انقبـض
حـذار حـذار فـإن الكريـم ... إذا سـيم خسـفا أبى فامتعـض
أبـا عامـر أيـن ذاك الوفـاء ... إذ الدهـر وسـنان والعيـش غـض
وأيـن الـذي كنـت تعتـد مـن ... مصادقتـي الواجـب المفـترض
ألم تنـش مـن أدبي نفحـة ... حسـبت بهـا المسـك طيبـا يفـض
ألم تـك مـن شـيمتي غاديـا ... إلى تـرع ضاحكتهـا فـرض
ولـولا اختصاصـك لم ألتفـت ... لحاليـك مـن صحـة أو مـرض
ولا عـادني مـن وفـاء سرور ... ولا نالنـي لجفـاء مضـض
يعـز اعتصـار الفتـى واردا ... إذا البـارد العـذب أهـدى الجـرض

خاتمة

توفي ابن زيدون أول رجب ٤٦٣ هـ/ ١٠٧١م في أشبيلية. وولي ابنه أبو بكر وزارة المعتمد ابن عباد، حيث قتل يوم أخذ يوسف بن تاشفين قرطبة من المعتمد سنة أربع وثمانين، كما ذكر في تاريخ الذهبي.

أبو البقاء الرندي

حياته ونسبه

هو صالح بن يزيد بن صالح بن موسى بن أبي القاسم بن علي بن شريف، أبو الطيب وأبو البقاء النفزي الرندي. شاعر أندلسي وهو من أبناء منطقة رندة قرب الجزيرة الخضراء في الأندلس، ونسب اسمه إليها أيضا. كان من القضاة وهو من قبيلة نفزة البربرية. ولد سنة ٦٠١ هـ/ ١٢٠٤ م، وهو من طبقة الشعراء والمفكرين. أقام بعدة مدن أندلسية وكان يكثر التردد إلى غرناطة. عاش في النصف الثاني من القرن السابع الهجري، وعاصر كثيرا من الفتن والاضطرابات التي حدثت في بلاد الأندلس وشهد سقوط معظم القواعد الأندلسية في يد الأسبان، لذا فإن قصائده تعبر عن نهاية الحكم الإسلامي والعربي في الأندلس وكأنها كانت ترثي ذاك المجد الآفل.

كانت حياته شبه مجهولة في القرون السابقة ولكن شهرة قصيدته «النونية» ساهمت كثيرا في حفظ اسمه وكان الناس والأدباء يتداولونها في مجالسهم وذكرت في كتب أدبية كثيرة.

شعره

كان الرندي، رحمه الله، بارعا في الشعر والنثر وأجاد في المدح والوصف. ويذكر أن قصيدته النونية أو ما تعرف بمرثية الأندلس «لكل شيء إذا ما تم نقصان» ساهمت في حفظ اسمه على مر العصور. نظم هذه القصيدة بعد سقوط بعض المدن الأندلسية وحاول من خلال قصيدته أن يستنصر أهل العدوة الإفريقية من المرينيين خصوصا عندما بدأ ابن الأحمر محمد بن يوسف أول سلاطين غرناطة في التنازل للإسبان عن عدد من القلاع والمدن حتى يرضيهم لكي يبقونه على حكمه المضطرب في غرناطة. سنذكر من قصيدته الأبيات التالية:

لـكل شيء إذا مـا تـم نقصـان ... فـلا يغـر بطيـب العيـش إنسـان
هـي الأيـام كـما شـاهدتها دول ... مـن سره زمـن سـاءته أزمـان
وهـذه الـدار لا تبقـي عـلى أحـد ... ولا يـدوم عـلى حـال لهـا شـان
أيـن الملـوك ذوو التيجـان مـن يمـن ... وأيـن منهـم أكاليـل وتيجـان
وأيـن مـا حـازه قـارون مـن ذهـب ... وأيـن عـاد وشـداد وقحطـان
أتى عـلى الـكل أمـر لا مـرد لـه ... حتـى قضـوا فـكأن القـوم مـا كانـوا
دهـى الجزيـرة أمـر لا عـزاء لـه ... هـوى لـه أحـد وانهـد ثهـلان
فاسـأل بلنسـية مـا شـأن مرسـية ... وأيـن شـاطبة أم أيـن جيـان
يـا راكبـين عتـاق الخيـل ضامـرة ... كأنهـا في مجـال السـبق عقبـان
وحاملـين سـيوف الهنـد مرهفـة ... كأنهـا في ظـلام النقـع نـيران
لمـاذا التقاطـع في الإسـلام بينكـم ... وأنتـم يـا عبـاد اللـه إخـوان

وقال الرندي في قصيدة أخرى:

يـا سـالب القلـب منـي عندمـا رمقـا ... لم يبـق حبـك لي صبـرا ولا رمقـا
لا تسـأل اليـوم عـما كابـدت كبـدي ... ليـت الفـراق وليـت الحـب مـا خلقـا
مـا باختيـاري ذقـت الحـب ثانيـة ... وإنمـا جـارت الأقـدار فاتفقـا
وكنـت في كلفـي الداعـي إلى تلفـي ... مثـل الفـراش أحـب النـار فاحترقـا
يـا مـن تجـلى إلى سري فصـيرني ... دكا وهـز فـؤادي عندمـا صعقـا
انظـر إلي فـإن النفـس قـد تلفـت ... رفقـا عـلي الـروح إن الـروح قـد زهقـا

قـدم الرنـدي قصائـد بمواضيع مختلفـة، ولم يتوقف عند الرثـاء والمدح وإنما أبـدع في الوصف أيضـا، وقال في ذلك:

مـا درى مديرهـا فـي كأسهـا ... وهـي مثـل البـارق المتقـد
درة ضمـت علـى يـاقوتـة ... أم لجيـن فيـه ثـوب عسجـدي
سقنـي غيـر مليـم إننـي ... حنفـي الـرأي والمعتقـد
لا أرى بالسكـر إلا مـن هـوى ... أو هبـات الـملك المؤيـد

وتعنـي كلمـة العسـجد الذهب أو نوع مـن أنواع الحلي الفاخـرة مثل الدر والجواهر والياقوت.

ماذا قال عنه الأدباء

قال عنه عبد الملك المراكشي: «كان خاتمة الأدباء في الأندلس بارع التصرف في منظوم الكلام ونثره فقيها حافظا وله مقامات بديعة». وقال ابن الخطيب: له تآليف أدبية وقصائد زهدية، ومقامات في أغراض شتى. ألف مختصرا في الفرائض وآخر في صنعة الشعر سماه الوافي في نظم القوافي، وتوجد نسخة منه في الخزانة العامة بتطوان. وله مؤلفات نثرية مثل تقسيم الإرث.

الخاتمة

لقد تزامنت نهاية حياته مع نهاية الحكم الإسلامي للأندلس فساهم أبو البقاء في توثيق كليهما من خلال قصائده، خاصة النونية، وبين أن تلك النهاية المأساوية كانت نتيجة التقاطع والتشرذم الذي حدث بين المسلمين. توفي، رحمه الله، سنة ٦٨٤ هـ - ١٢٨٥م.

المعتمد بن عباد

حياته ونسبه

هو أبو القاسم محمد بن عباد بن محمد بن إسماعيل، لقب بالمؤيد بالله والمعتمد على الله ويعود نسبه إلى ملوك الحيرة، في عصر ما قبل الإسلام، تحديدا إلى النعمان بن المنذر بن ماء السماء. وهو ثالث وآخر ملوك بني عباد في الأندلس. ولد سنة ٤٣٢ هـ في مدينة باجة غرب الأندلس وتقع الآن في دولة البرتغال.

عاش ابن عباد خلال فترة حكم المرابطين وهي الفترة التي تلت الخلافة الأموية في بلاد الأندلس حيث تفككت الخلافة الأموية إلى أكثر من عشرين مملكة ودويلة في الأندلس وكان بعضها يناحر البعض الآخر. استعان به والده في الحكم وهو غلام لم يتجاوز عمره الثانية عشر، لأن والده أراد أن يدربه على الحكم منذ نعومة أظافره. حكم اشبيلية بعد وفاة والده وكان في الثلاثين من عمره آنذاك ثم وسع مملكته بعد ضم كل من بلنسية ومرسية وقرطبة وأصبح أحد أقوى ملوك الطوائف.

حكمه ومعركة الزلاقة

حاول ملك قشتالة، ألفونسو السادس السيطرة على مملكة المعتمد مستغلا التشرذم الذي حل ببلاد الأندلس بعد تفكك الدولة الأموية، فأرسل إلى المعتمد رسولا يحمل رسالة تهديد، ومعه ٥٠٠ فارس، لإرهاب المعتمد لكن الهمة والنخوة العربية هبت به واجتمع بأصحاب الرأي ثم قرر أن يقتل جميع الفرسان الذين أرسلهم ألفونسو. وبعد أن قام بقتلهم أرسل مع نفس الرسول رسالة شديدة اللهجة إلى ألفونسو. وعقب مقتل الفرسان القشتاليين بدأ ألفونسو يحشد للهجوم على المعتمد.

في هـذه الأثنـاء، طلـب المعتمـد المـدد مـن حـكام المرابطـين وعـلى رأسـهم يوسـف بـن تاشـفين فنـصروه وحدثت معركـة مروعـة في منطقة سـهل الزلاقة جنـوبي بـلاد الأندلـس. كان النصر حليـف المعتمد وحلفائـه، ولم ينج من جيش قشـتالة إلا شرذمـة قليلـون مع ملكهم، ألفونسـو.

كان لهـذه المعركـة تأثـير كبـير في التاريـخ الإسـلامي لأنهـا أخـرت سـقوط الأندلـس لأكـثر مـن قرنـين. وسـميت أيضـا بالزلاقـة لكـثرة الدماء التـي أريقت ذلـك اليـوم ومـلأت أرض المعركـة فأصبـح الفرسـان ينزلقـون في أرض السـهل لكـثرة الدمـاء وأشـلاء القتـلى.

شعره

ازدهـرت إشـبيلية خـلال فـتر حكـم المعتمـد وبنيـت القصور وشـيدت دور العلـم، وأصبـح المعتمـد من أقوى ملـوك الطوائف وكان كثير الاهتمام بالشـعر وخصـص وقتـا طويـلا للجلوس مع الشـعراء والسـماع منهم. وقـد نبغ في عهده الكثـير مـن الشـعراء مثـل أبي بكر بن عـمار وابن زيـدون وابن اللبانة وشـعراء آخـرون. كتـب المعتمـد الكثـير مـن القصائـد وكان بلاطـه مفتوحـا للشـعراء الذيـن تهافتـوا إليـه مـن مناطـق مختلفـة مثـل إفريقيـة وصقليـة، وجمـع لـه شـاعره ابـن اللبانـة كتابـا يحتـوي عـلى كثير من شـعره وسـماه «سـقيط الدرر ولقيـط الزهر».

كان للمعتمـد هيبـة وأخـلاق الملـوك وكان كريمـا شـهما حليـما وكان أفضل ملـوك بنـي عبـاد الذيـن حكمـوا إشـبيلية. ذكـره ابـن خلقـان (في وفيـات الأعيان) فقـال: «كان أنـدى الملـوك راحـة وأرحبهـم سـاحة. وكان بابـه محـط الرجـال وكعبـة الآمـال. ولـه شـعر غاية مـن الحكمـة والرصانة والجـمال». قال ابـن عبـاد في أحـد قصائـده يبـين شـهامته وصفحـه وعفـوه:

تقدم إلى ما اعتدت عندي من الرحب ورد تلقك العتبى حجابا من العتب
متى تلقني تلق الذي قد بلوته صفوحا عن الجاني رؤوفا على الصحب
سأوليك مني ما عهدت من الرضا وأعرض عما كان إن كان من ذنب

المعتد واعتماد

كان المعتمد يمشي ذات يوم مع الشاعر ابن عمار في مرج الفضة المطلة على نهر الوادي الكبير فقال: صنع الريح من ماء الزرد وأراد من ابن عمار أن يكمل البيت لكن بديهته لم تسعفه بشيء، فسمعت امرأة كانت قربهم، فقالت: أي درع لقتال لو جمد. أعجب المعتمد بموهبتها، فسأل عنها، فقيل: اسمها اعتماد وهي جارية لرميك بن حجاج، وتزوجها فيما بعد وغير اسمه من المؤيد بالله إلى المعتمد على الله، تيمنا باسمها، لأنه كان يحبها كثيرا وكانت شاعرة أيضا.

حربه مع ابن تاشفين

كان ابن تاشفين يحترم المعتمد بن عباد، ولكن نفرا من المغرضين حرضوه عليه وأوغروا صدره فنسي كل ما كان بينهما وأمر بقتل ولدي المعتمد ثم حدثت معركة عنيفة بين أهالي أشبيلية وبين البربر انتصر فيها المعتمد في بداية الأمر ولكن هذا النصر لم يدم طويلا إذ انقلبت الدائرة على المعتمد فأسره جيش ابن تاشفين، بعد أن أبلى أحسن البلاء في الدفاع عن مملكته. ونزل المعركة بدون شيء يصد عنه وقع السهام سوى قميص أبيض وقال في تلك المعركة أبياتا حين دعاه أحد المشفقين عليه إلى الخضوع ومصالحة ابن تاشفين:

قالــوا الخضــوع سياســة فليبــد منــك لهــم خضــوع
وألــذ مــن طعــم الخضــوع عــلى فمــي الســم النقيــع
قــد رمــت يــوم قتالهــم ألا تحصننــي الــدروع
وبــرزت ليــس ســوى القميــص عــن الحشــاشي دفــوع
أجــلي تأخــر لم يكــن بهــواي ذلي والخشــوع
مــا سرت قــط إلى القتــال وكان مــن أمــلي رجــوع
شــيم الأولى أنــا منهــم والأصــل تتبعــه الفــروع

حياة المنفى والسجن

لقد تقلب الزمان بالمعتمد من ابن ملك إلى أمير ثم ملك ثم أسير فسجين وعاش حياة المنفى أيضا عندما نفاه ابن تاشفين هو وبعض ملوك الطوائف الأخرى إلى أغمات، بعيدا عن شواطئ وحاضرة الأندلس حتى لا يتمكنوا من التواصل مع الناس والثورة على ابن تاشفين مرة أخرى. زاره في منفاه عدد من أصدقائه القدامى مثل الشاعر ابن اللبانة وألف كتابا أسماه «السلوك في وعظ الملوك» وزاره ابن حمديس الصقلي وكتب فيه عددا من القصائد وساعدت هذه الزيارات في تخفيف وطأة السجن على المعتمد. قال أثناء أسره في أغمات عندما رأى بناته اللواتي جئن لزيارته في أيام العيد:

فيما مــضى كنــت بالأعيــاد مسرورا فســائك العيــد في أغــمات مأســورا
تــرى بناتــك في الأطــمار جائعــة يغزلــن للنــاس مــا يملكــن قطميرا
بــرزن نحــوك للتســليم خاشــعة أبصارهــن حســيرات مكاســيرا
يطــأن في الطــين والأقــدام حافيــة كأنهــا لم تطــأ مســكا وكافــورا
أفطــرت في العيــد لا عادت إســاءته فعــاد فطــرك للأكبــاد تفطــيرا
قــد كان دهــرك إن تأمــره ممتثــلا فــردك الدهــر منهيــا ومأمــورا
مــن بــات بعــدك في ملك يــسر به فإنمــا بــات في الأحــلام مغــرورا

وقال يرثي نفسه:

قــبر الغريب ســقاك الرائح الغــادي حقــا ظفــرت بأشــلاء ابــن عبــاد
بالحلـم بالعلـم بالنعمــى إذ اتصلــت بالخصــب إن أجدبــوا بالــري للصــادي
بالطاعــن الضــارب الرامــي إذا اقتتلــوا بالمــوت أحمــر بالضرغــامة العــادي
بالدهــر في نقــم بالبحــر فــي نعــم بالبــدر في ظلــم بالصــدر في النــادي
نعــم هــو الحــق وافانــي بــه قــدر مــن السمــاء فوافانــي لميعــاد
ولم أكــن قبــل ذاك النعــش أعلمــه أن الجبــال تهــادى فــوق أعــواد
كفــاك فارفــق بمــا اســتودعت مــن كــرم رواك كل قطــوب البــرق رعــاد
يبــكي أخــاه الــذي غيبــت وابلــه تحــت الصفيــح بدمــع رائــح غــادي
حتــى يجــودك دمــع الطــل منهمــرا مــن أعــين الزهــر لم تبخــل بإسعــاد
ولا تــزال صــلوات اللــه دائمــة عــلى دفينــك لا تحصــى بتعــداد

تـوفي، رحمـه اللـه، سـنة ٤٨٨ هــ /١٠٩٥م، في مدينـة أغمات وسـط المغرب العـربي بالقـرب مـن مراكـش. وكان موتـه وأسره وسـجنه محل انتقـاد لما فعله يوسـف بـن تاشـفين بـه وأكسـب المعتمـد تعاطف الكثير مـن النـاس. ولا يزال قـبره وجهـة للشـعراء والأدبـاء الذيـن لم يتوقفـوا عـن زيارته منذ أمـد بعيد.

أمير غرناطة يوسف الثالث

حياته ونسبه

هو أبو الحجاج يوسف الثالث بن يوسف بن محمد الغني بالله، الملك الثاني عشر من ملوك بني نصر مؤسسي «مملكة غرناطة»، وهي آخر معقل إسلامي في الأندلس. ولد نحو ١٣٧٥ م، وعينه والده وليا للعهد في سن العشرين.

يعود نسب بني نصر إلى الصحابي الجليل سعد بن عبادة، زعيم الخزرج قبل الإسلام، وكانوا يفتخرون بهذا النسب الكريم. حكموا غرناطة في نهاية العصر الإسلامي بالأندلس وتعتبر هذه العائلة آخر عائلة عربية مسلمة تحكم الأندلس والتي استمر حكمها حتى عام ١٤٩٢ م، وذلك بعد أن أعلن محمد بن نصر بن الأحمر نفسه سلطانا عليها بعد سقوط دولة الموحدين في الأندلس عام ١٢٣٨.

قصر الحمراء

تم تشييد قصر الحمراء، الذي ترعرع فيه يوسف الثالث، خلال فترة حكم آل الأحمر وربما أخذ الاسم من العائلة أيضا. ويرى البعض أنه سمي بقصر الحمراء نسبة إلى لون تراب المنطقة التي بني فيها حيث يغلب عليه اللون الأحمر. بدأت عملية تشييد القصر في فترة حكم الملك أبي عبد الله محمد الأول في مملكة غرناطة عام ١٢٣٨ تقريبا واستمرت عملية البناء حتى عام ١٢٧٣، وطوره وزاد في مرافقه الحكام والأمراء الآخرون من بني الأحمر.

تم بناء بعض أجزاء القصر في القرن السابع الهجري وتظهر فيه جليا سمات العمارة الإسلامية في كافة مرافق وأسور وأبنية القصر وكذلك

الزخارف والهندسة التي تجسد ثقافة تلك الحقبة. وتم كتابة العديد من الآيات القرآنية والأدعية وبعض الأبيات الشعرية أيضا.

يعتبر قصر الحمراء أحد أهم المعالم الأثرية والسياحية في إسبانيا، ويبعد نحو ٤٣٠ كيلومترا جنوب مدريد. يقع القصر على الضفة اليسرى لنهر حدرة على مساحة شاسعة تصل إلى ١٤٢٠٠٠ متر مربع. ويشكل حصنا منيعا وهذه أيضا إحدى السمات المهمة للقصور في العصور السالفة وذلك للاستفادة منه أثناء الحروب.

عزله عن ولاية العهد وسجنه

عندما عينه والده وليا للعهد لم يكن أخوه محمد، وهو أصغر منه سنا، راضيا عن ذلك وحاول القيام بثورة على أبيه وأخيه لكنه تراجع عنها بعد حين. ولما توفي والده استطاع محمد أن يعقد الاتفاقيات مع بعض الأعيان وأزاح أخاه عن الحكم قبل أن يتسلمه وزج به في غياهب السجن، في قلعة شلوبانية والتي تمثل سجن الدولة الحصين. مكث في السجن طوال حكم أخيه الذي دام نحو ١٤ عاما، كي يضمن ألا ينازعه الملك بعد وفاة أبيه. وكان يوسف يشعر بالظلم بعد أن سلبه أخوه حقه رغم اليمين الذي أداه أمام أبيه على السمع والطاعة ليوسف.

استيقظت شاعرية الأمير يوسف في السجن وكان ينظم الشعر قبل ذلك ولكن شعره قبل أن يحبس لم يكن جزلا كما كان في مرحلة السجن. وكان يغلب عليه في البداية عدم الوضوح أحيانا، وهو ما يظهر عادة في بداية المسيرة الشعرية للشعراء. قال في إحدى قصائده:

إذا ما عدو الدين جاس خلاله ... ورام استراق السمع كف مريده
تمر به هوج الرياح فتنثني ... قد سد مسراها الرفيع صعوده
تروم سموا فوقه وهي دونه ... فتقصر عما تشتهي وتريده
دعوت له أهل الجهاد فأهطعوا ... كما زارت البيت العتيق وفوده
ودارت حواليه الجنود كأنها ... وشاح على خصر يروق فريده

شعره

تـربى الأمـير يوسـف تربيـة ملـوك في دار الملك وتحديـدا في مدينـة الحمراء خـلال حكـم جـده الغنـي بالله. ولم يكـن بعيـدا عـن مجالـس اللهـو والطرب بدايـة حياتـه، ولكـن الانتصـارات وأخبار الجيـوش والمعارك التي كان يسـمعها في القـصر أثـرت عليـه أيضـا ودفعتـه نحـو الحماسـة والشـجاعة التـي ألهبـت شـاعريته. وهـو أيضا شـاعر مجيد اسـتخدم مختلـف الفنون الشـعرية كالغزل ووصـف الطبيعـة والمعـارك والفخـر والرثاء. قـال في رثـاء والده:

عـلى ظـلال مـن عنايـة يوسـف ودوني حسـام للخلافـة مرهـف
تباركنـي تـترى عوارفـه ضحـى وينتابنـي تسـآله والتعـرف
فـلا همـة للقلـب فيهـا تهمهـم ولا كلفـة للنفـس فيهـا تكـلف
وحاجـات نفـس لم أراقـب مكانهـا فـكان لـه منـه الرضـا والتعطـف

وتظهـر بعـض قصائـده جانب من اللهو وحياة الرفاهية التي كان يعيشـها، كقوله:

كـم ذا تطيـل تولهـي وعنـائي مـا ذا يـضرك لـو أجبـت نـداء
اللـه في نفـس العليـل فربمـا غلـب الصـدود فصـار في الأعـداء
كـم مقلـة أسـهرتها بـك ظالمـا حـق الوفـاء فلـم تجـد بوفـاء
مـا ضر لـو زان المجـال تجمـل يـبرى الـذي هيجـت مـن برحـاء

وله قصائد أخرى تتحدث عن الشجاعة والإقدام، مثل قوله:

يقولـون هـذا الحـزم فاسـلك سـبيله ودعنـا نصـول بالعـدا ونطـول
أمـا علمـوا أني أعيـش مؤمـلا ليـوم أراه للعثـار يقيـل
فوالهفـا لـو كان يجـدي تلهفـي سـبيل لعمـري مـا إليـه سـبيل

وقال في نفسه:

أنـا يوسـف واليوسـفي صفاتـه إذا عـز نيـل فالمواهـب نيـل
أنـا يوسـف والصـدق يشـهد أننـي عـلى الخلـق ظـل في الهجـير ظليـل
فكيـف أرى غـير الوفـاء سـجية وعنـدي منـه معـشر وقبيـل
وأعـلام مـن أعطـى المعـالم حقهـا مخائـلي بـاد حسـنها وخيـول
تـرد جنـود المارقـين بعزمـة تـروع إذا مـا اسـتطلعت وتهـول

ويقول أيضا:

تمادى هجير الهجر بين جوانحي فهل لي إلى ظل الوصول سبيل
هي الغادة الحسناء أما التماحها فكاف وأما وصلها فكفيل
صبرت على ما بي من الوجد والأسى وما كل صبر العاشقين جميل
يقولون أقصر عن هوى من تحبه وشرح حديثي في هواي يطول
أما عرفوا سلمى وأن خيالها حبيب على بعد المزار وصول
أما سلموا في حسن سلمى وإنه إذا حل في قلب فليس يحول

تحصيله العلمي

درس يوسف على يد مجموعة من العلماء وأخذ العلم عنهم مثل الوزير الشاعر ابن زمرك والقاضي أبي محمد عبد الله بن جزي وعبد الله الشريسي وقاضي غرناطة الخطيب أبي عبد الله محمد بن علاق وغيرهم. وسار في تعليمه على الطريقة الأندلسية التي كانت تركز على القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة واللغة العربية بشكل عام والشعر بشكل خاص.

النهاية

توجه سنة ٨١٣ هـ، ١٤٠٠ م نحو الجنوب صوب جبل طارق، ولكن في هذه الأثناء احتل المرينيون جبل طارق فاتجه إلى مالقة مرة أخرى ومكث فيها فترة من الزمن. وفي نهاية حياته شعر بالتعب والمرض فانتقل إلى قرية قرب غرناطة تدعى الحمة سنة ٨١٩ هـ ١٤١٧ م، حيث كانت محطته الأخيرة. توفي فيها سنة ٨٢٠ هـ،١٤١٧م عن عمر يناهز الأربعين عاما.

الفصل الخامس

العصر العباسي

امتد العصر العباسي لعدة قرون، وبدأ مع نهاية الدولة الأموية عام ١٣٢هـ واستمر حتى ٦٥٦ هـ عندما انتهت الدولة العباسية الأولى على يد المغول، وقد قسمه المؤرخون إلى ثلاثة عصور:

العصر العباسي الأول؛ ويمتد منذ بداية الدولة حتى خلافة الواثق بالله التي انتهت عام ٢٣٢ هـ. وقد حققت الدولة خلال هذه الفترة تقدما حضاريا لافتا خاصة في عهد الخليفة هارون الرشيد وأبنائه. وتم في هذه الفترة تشييد الكثير من المكتبات ودور العلم وازدهرت حركة الترجمة من وإلى العربية.

بدأ العصر العباسي الثاني بخلافة المتوكل عام ٢٣٢ هـ وانتهى عام ٤٤٦ هـ. اتسمت تلك الفترة بزيادة الترف بين الناس ونشطت الحركة العلمية وازدادت المكتبات وحركة التأليف والترجمة مع اتساع هامش اللهو وانتشار الموسيقى والآلات الموسيقية.

بدأ العصر العباسي الثالث منذ عام ٤٤٦ حتى سقوط بغداد بيد المغول عام ٦٥٦. اتسمت هذه الفترة باتساع حركة التأليف في مجالات متعددة مثل التاريخ والجغرافيا ومختلف العلوم الإسلامية. ومن أشهر شعراء وأدباء العصر العباسي أبو الطيب المتنبي وأبو العتاهية والأصمعي وأبو تمام وابن زريق البغدادي.

أبو الطيب المتنبي

حياته ونسبه

ولد المتنبي، أحمد بن الحسين بن الحسن بن عبد الصمد الجعفي الكوفي الكندي، سنة ٣٠٣هـ/ ٩١٥م في الكوفة. لقب بأبي الطيب الكندي والكوفي لأنه ولد في الكوفة وفي حي كانت تقطنه قبيلة كندة. اختلفت الروايات حول تسميته بالمتنبي، فقيل إنه سمي بذلك لأنه متنبئ الشعر، أي شاعر غزير فاق شعراء عصره، وهذا القول هو الأرجح، والله أعلم. وقيل أيضا سمي بالمتنبي لأنه ادعى النبوة في بادية السماوة في العراق وتبعه بعض أبناء تلك المنطقة فأسره الإخشيدي وسجنه وتاب في السجن ثم خرج. والبعض يرى أنه سمي بالمتنبي لأنه قال هذه الأبيات:

ما مقامي بأرض نخلة إلا كمقام المسيح بين اليهود
أنا في أمة تداركها الله غريب كصالح في ثمود

رحل المتنبي مع والده من الكوفة إلى بغداد وهو في الرابعة عشر من عمره، ومكث بعدها طويلا عند سيف الدولة في حلب وكذلك زار دمشق وطرابلس واللاذقية وحمص ومدح كثيرا من الأمراء. كان صاحب كبرياء وشموخ ومحبا للمغامرات. وبدأ بنظم الشعر مذ كان عمره تسعة سنين وكان موهوبا وحاد الذكاء أيضا.

المتنبي وسيف الدولة

طاف المتنبي الصحاري والمدن بحثا عن أمير يمدحه ويتقرب منه ومدح الكثير إلى أن استقر به الحال في حضرة سيف الدولة الحمداني، شاعر وفارس بني حمدان. ويعود نسب سيف الدولة إلى قبيلة تغلب لذلك قال فيه المتنبي:

من تغلب الغالبين الناس منصبه ومن عدي أعادي الجبن والبخل

عندما سمع الحمداني شعر المتنبي أجازه وقربه منه وقدم له الكثير من الهدايا والأعطيات في مدينة حلب التي كان يقطنها سيف الدولة، لكن المتنبي كان يرى أنه يستحق أكثر من هذه الهدايا والأعطيات لأنه فاق جميع الشعراء آنذاك. كان الحمداني يحترم المتنبي كثيرا وخاضا عدة معارك معا. ويذكر أن الشعراء كانوا يلقون قصائدهم وقوفا إلا المتنبي كان يلقي قصائده وهو جالس ولم تكن هذه الميزة لغيره من الشعراء الآخرين في مجلس سيف الدولة. لقد اعتاد المتنبي أن يمدح نفسه وأن يخصص جزءا كبيرا من قصائده لنفسه قبل أن يبدأ بمدح الشخص الآخر لذا حدثت فجوة بينه وبين سيف الدولة وازدادت بفعل الكارهين له وحساده.

نجح حساد المتنبي في استغلال هذه الفجوة وزيادتها وأحس المتنبي بأن الأمير بدأ يتغير عليه، وقالوا للمتنبي إن سيف الدولة غير راض عنه وقالوا كلاما مشابها لسيف الدولة أيضا، ثم بدأ المتنبي يتصرف بغلظة مع حاشية الأمير الذين أبلغوه هذا. وبعد فترة من الزمن، فارق المتنبي سيف الدولة ولم يكن كارها له وإنما كره بعض حاشيته من الحساد، وقال في هذا:

عقبى اليمين على عقبى الوغى ندم ... ماذا يزيدك في إقدامك القسم
وفي اليمين على ما أنت واعده ... ما دل أنك في الميعاد متهم
كل السيوف إذا طال الضراب بها ... يمسها غير سيف الدولة السأم
لو كلت الخيل حتى لا تحمله ... تحملته إلى أعدائه الهمم
وظنهم أنك المصباح في حلب ... إذا قصدت سواها عادها الظلم
ضربته بصدور الخيل حاملة ... قوما إذا تلفوا قدما فقد سلموا
تخط فيها العوالي ليس تنفذها ... كأن كل سنان فوقها قلم
لا تطلبن كريما بعد رؤيته ... إن الكرام بأسخاهم يدا ختموا
ولا تبال بشعر بعد شاعره ... قد أفسد القول حتى أحمد الصمم

مقتطفات من شعر المتنبي

تميز شعر المتنبي بخصوبة الخيال وقوة المعاني وكان معبرا عن الحقبة الزمنية التي عاش فيها، خصوصا أن تلك المرحلة لم تكن مستقرة سياسيا وكانت الثورات تجتاح أراضي الخلافة العباسية، ووصف في بعض قصائده المعارك التي خاضها سيف الدولة مع الروم. وكان المتنبي يربى بنفسه عن مدح الكثير من الولاة وكرس ما يقارب ثلث شعره لسيف الدولة، الذي قال فيه:

على قدر أهل العزم تأتي العزائم وتأتي على قدر الكرام المكارم
وتعظم في عين الصغير صغارها وتصغر في عين العظيم العظائم
وقفت وما في الموت شك لواقف كأنك في جفن الردى وهو نائم
تمر بك الأبطال كلمى هزيمة ووجهك وضاح وثغرك باسم

أبدع المتنبي بمختلف ألوان الشعر مثل الوصف كوصف المعارك والحروب ووصف الطبيعة، وكان شديد الاعتداد بنفسه وهذا يبدو جليا عندما نتأمل الأبيات التالية:

أنا الذي نظر الأعمى إلى أدبي وأسمعت كلماتي من به صمم
أنام ملء جفوني عن شواردها ويسهر الخلق جراها ويختصم
و جاهل مده في جهله ضحكي حتى أتته يد فراسة وفم
إذا رأيت نيوب الليث بارزة فلا تظنن أن الليث يبتسم
و مهجة مهجتي من هم صاحبه أدركته بجواد ظهره حرم
الخيل والليل والبيداء تعرفني والسيف والرمح والقرطاس والقلم

أما في الهجاء فكان له شأن آخر، خصوصا في هجاء كافور الاخشيدي حاكم مصر، علما بأن كافور كان شهما كريما كما وصفه المؤرخون ولا يستحق الهجاء، وكان كافور عبدا خصيا. وكان سبب توجه المتنبي إلى كافور هو الخلاف الذي وقع بينه وبين حاشية سيف الدولة، لذا قرر التوجه إلى مصر لعله يحصل على مكانة أفضل عند كافور فأكرمه كافور ثم مدحه المتنبي وأسمى كافورا بأبي المسك. ومما قال في مدحه لكافور:

عنـــد الهمام أبي المســـك الـــذي غرقت ... في جـوده مـضر الحمـراء واليمـن
وإن تأخـــر عنـــي بعـــض موعـــده ... فـما تأخـر آمـالي ولا تهـن
هـــو الـــوفي ولكنـــي ذكـــرت لـــه ... مـودة فهـو يبلوهـا ويمتحـن

ولكـن عندمـا تيقـن المتنبـي أنـه لـن يحصـل عـلى المرتبـة التـي كان يصبـو إليهـا، انقلـب على كافـور فهجاه هجاء قبيحـا. ومن المفارقـات الغريبة هي أن النـاس نسـوا كل صفـات كافـور الحميدة ولا يذكرون الآن سـوى هجـاء المتنبي لـه، ولعـل هـذا يـبرز دور الشـعراء وأهميـة الشـعر وكذلك خوف الحـكام من إغضاب الشـعراء لأنهم إذا خرجوا من الديار سـيهجونهم، وأن قصائد الشـعراء المجيديـن سـيرددها النـاس أزمانـا مديدة. قـال المتنبي في هجـاء كافور:

لا تشـتـر الـعبـــد إلا والـعـصـا مـعـه ... إن الـعـبـيـــد لأنـــجـــاس مـنـاكـيـد
مـا كنـــت أحسبني أحيـــا إلـى زمـن ... يسـيء بـي فيـه عبـد وهـو محمود
ولا توهـمـــت أن الـنـاس قـد فـقـدوا ... وأن مـثـل أبـــي البـيـضـاء مـوجـود
وأن ذا الأســـود المثـقـــوب مـشـفـره ... تـطـيـعـه ذي الـعـضـاريـط الـرعـاديـد
جوعـــان يأكـل مـــن زادي ويمسكني ... لـكـي يـقـال عظيـم الـقـدر مقصود

وقال فيه أيضا:

مـــن أية الطـــرق يـــأتي مثلـــك الكرم ... أيـــن المحاجـم يـا كافـور والجلـم
جـــاز الألى ملكـــت كفـــاك قدرهـــم ... فعرفـوا بـك أن الكلـب فوقهـم
ســـادات كل أنـــاس مـــن نفوســـهم ... وسـادة المسـلمين الأعبـد القـزم
أغايـــة الديـــن أن تحفـــوا شـــواربكم ... يـا أمـة ضحكـت مـن جهلهـا الأمـم
ألا فتـــى يـــورد الهنـــدي هامتـــه ... كيـما تـزول شـكوك النـاس والتهـم
فإنـــه حجـــة يـــؤذي القلـــوب بـــه ... مـن دينـه الدهـر والتعطيـل والقـدم
مـــا أقـــدر اللـــه أن يخـــزي خليقته ... ولا يصـدق قومـا في الـذي زعمـوا

فروسيته

شـارك المتنبـي في عـدة حـروب مـع سـيف الدولـة حيـث أبـلى فيهـا بـلاء حسـنا بيـده ولسـانه. وبعـد أن غـادر سـيف الدولـة هجـى ضبـة بـن يزيـد

الأسـدي العينـي الـذي توعـده وترصـد طريقـه وعندما عـاد المتنبـي ذات يوم مـن بغـداد إلى الكوفـة وكان معه جماعة مـن بينهم ابنه محمـد وغلامه مفلح لقيـه جماعـة مـن بنـي أسـد وتقاتـلا وكانت الغلبـة لبني أسـد فحـاول المتنبي الهـرب مـن أرض المعركـة فقـال لـه غلامـه مفلـح: أتهـرب وأنـت القائل؟

الخيـــل والليـــل والبيـــداء تعرفنـــي والســـيف والرمـــح والقرطـــاس والقلـــم

فقـال المتنبـي: قتلتنـي قتلـك اللـه. وعـاد المتنبي وقاتـل إلى أن قتـل. وتبين هـذه الحادثـة إقـدام المتنبـي وأنـه لم يسـتمر بالهـرب وأن قولـه كان مطابقـا لفعالـــه. قتـــل معـه في تلـك الوقعـة ابنـه وغلامـه مفلـح وكان ذلـك سـنة ٣٥٤هـ/ ٩٦٥م.

أبو العتاهية
شاعر الوعظ والحكمة

حياته

اسمه أبو إسحق إسماعيل بن القاسم بن سويد العيني. ولد في منطقة عين التمر، قرب الكوفة، سنة ١٣٠هـ/٧٤٧م. عمل أبو العتاهية في بداية حياته بائعا، لكنه اتجه إلى الأدب فيما بعد ونبغ في الشعر. عاش هذه الفترة من حياته في الكوفة وبدأت مواهبه الأدبية والشعرية بالسطوع عندما انتقل إلى بغداد فمدح المهدي والهادي والرشيد. وكانت له قصص جميلة مع هارون الرشيد، سنذكر بعض منها في هذه المقالة.

قيل إنه عاش حياة المجون في شبابه ولذلك سمي بأبي العتاهية، والتي تعني الحمق أو الأحمق، لكنه غير حياته بشكل كامل فيما بعد وعاش حياة الزهد.

اتصاله بالخلفاء

قال ابن كثير في البداية والنهاية: أصل أبو العتاهية من الحجاز وسكن بغداد، وكان يبيع الجرار أولا، ثم حظي عند الخلفاء لاسيما المهدي. وقد كان يعشق جارية للمهدي اسمها عتبة وقد طلبها من الخليفة أكثر من مرة ولكنها رفضته. وقالت للمهدي: أتعطيني لرجل دميم الخلق كان يبيع الجرار؟ وكان يكثر التغزل فيها، وشاع أمره ولكن المهدي كان يتفهم ذلك.

قيل إن الخليفة المهدي استدعى الشعراء إلى مجلسه ذات يوم فاجتمعوا له، وكان فيهم أبو العتاهية وبشار بن برد، الأعمى، فسمع صوت أبي العتاهية، فقال بشار لجليسه: أثم هاهنا أبو العتاهية؟ قال: نعم. فوجم لها بشار، ثم استنشد المهدي أبي العتاهية، فأنشده قصيدة قال فيها:

ألا ما لسيدتي ما لها أدلت فأحمل إدلالها

فقال بشار لجليسه: ما رأيت أجسر من هذا. حتى انتهى أبو العتاهية إلى قوله:

أتته الخلافة منقادة إليه تجرر أذيالها
فلم تك تصلح إلا له ولم يك يصلح إلا لها
ولو رامها أحد غيره لزلزلت الأرض زلزالها
ولو لم تطعه بنات القلوب لما قبل الله أعمالها

فقال بشار لجليسه: انظر ويحك، أطار الخليفة عن فراشه أم لا؟ قال: فوالله ما خرج أحد من الشعراء يومئذ بجائزة غيره.

وقال ابن خلكان : من لطيف شهر أبي العتاهية، قوله:

ولقد صبوت إليك حتى صار من فرط التصابي
يجد الجليس إذا دنا ريح التصابي في ثيابي

وقال ابن خلكان: أشعاره كثيرة، وكان مولده سنة ثلاثين ومائة، وتوفي يوم الاثنين ثالث جمادى الآخر سنة إحدى عشرة- وقيل ثلاث عشرة- ومائتين من الهجرة. وأوصى أن يكتب على قبره ببغداد:

إن عيشا يكون آخره الموت لعيش معجل التنغيص

شعره

عاش أبو العتاهية حياة متضاربة، حيث خالط أهل اللهو والمجون من طبقته من الشعراء مثل أبي نواس، ولكن انقلبت حياته رأسا على عقب، بعد توبته حيث أعرض عن شعر الغزل وأنصرف إلى الزهد وشعر الوعظ والحكمة.

وكان ينظم المائة والمائة والخمسين بيتا في اليوم، حتى لم يكن للإحاطة بجميع شعره من سبيل. وكان يجيد القول في الزهد والمدح وأكثر أنواع الشعر في عصره، وسنذكر شيئا من قصائده:

بكيــت عــلى الشــباب بدمــع عيني فلــم يغــن البــكاء ولا النحيــب
فيــا أســفا أســفت عــلى شــباب نعــاه الشــيب والــرأس الخضيــب
عريــت مــن الشــباب وكنــت غضا كــما يعــرى مــن الــورق القضيــب
فيــا ليــت الشــباب يعــود يومــا فأخــبره بمــا فعــل المشــيب

وقد أبدع بقصيدة أخرى تعرف باليأس من الدنيا، حيث تزخر هذه القصيدة بالوعظ وتصور حالة الإنسان في هذه الدنيا الفانية التي ستنتهي يوما بهادم اللذات:

قطعــت منــك حبائــل الآمــال وحططــت عــن ظهــر المطــي رحــالي
ويئســت أن أبقــى لــشيء نلت مما فيــك يــا دنيــا وإن يبقــى لي
ولــئن يئســت لــرب برقــة خلــب برقــت لــذي طمــع، وبرقــة آل
ولقــد أقــام لي المشــيب نعاتــه تفــضي إلي بمفــرق وقــذال
ولقــد رأيــت المــوت يــبرق ســيفه بيــد المنيــة ، حيــث كنــت، حيــالي
ولقــد رأيت عــرى الحيــاة تخرمت ولقــد تصــدى الوارثــون لمــالي
وإذا اعتــبرت رأيــت خطــب حوادث يجريــن بــالأرزاق، والآجــال
وإذا تناســبت الرجــال فــما أرى نســبا يقــاس بصالــح الأعــمال
وإذا بحثــت عــن التقــي وجدتــه رجــلا يصــدق قولــه بفعــال
وإذا اتقــى اللــه امــرؤ وأطاعــه فيــداه بــين مــكارم ومعــال
وعــلى التقــي إذا ترســخ في التقــى تاجــان تــاج ســكينة وجــلال
الحمــد للــه الحميــد بمنــه خــسرت ولم تربــح يــد البطــال
للــه يــوم تقشــعر جلودهــم وتشــيب منــه ذوائــب الأطفــال
للمتقــين هنــاك نــزل كرامــة علــت الوجــوه بنــضرة وجــمال

أبو العتاهية والرشيد

هناك الكثير من القصص التي رويت عن أبي العتاهية، وكثير من المواقف له مع الخلفاء وخاصة هارون الرشيد، ولطالما سالت دموع الرشيد تأثرا بشعر أبي العتاهية الوعظي. يروى أن هارون الرشيد كان يوما في قصره، محاطا بحاشيته وكان من بينهم أبي العتاهية، فأراد الرشيد أن يصف له أبو العتاهية هذا الحال المترف، فقال أبو العتاهية:

عش ما بدا لك سالما في ظل شاهقة القصور
يسعى عليك بما اشتهيت لدى الرواح أو البكور

فقال حسن، ثم ماذا؟ فقال:

فإذا النفوس تقعقعت في ظل حشرجة الصدور
فهناك تعلم موقنا ما كنت إلا في غرور

وقيل إن أبا العتاهية قرر أن يتوب، ذات يوم عن شعر الغزل، لكن الرشيد حبسه ورفض أن يطلق سراحه مالم يقل شعرا في الغزل، فقال أبو العتاهية:

أما والله إن الظلم لؤم ومازال المسيء هو الظلوم
إلى ديان يوم الدين نمضي وعند الله تجتمع الخصوم

فلما بلغ ذلك الرشيد تأثر وأمر بإطلاقه.

وذكر أبو الفرج الأصفهاني، في كتاب الأغاني، أن الرشيد كان يحب أن يسمع صوت الملاحين ينشدون إذا ركب الزلالات. فقال: قولوا لمن معنا من الشعراء ينظموا لهؤلاء شعرا ينشدونه، فقيل له: ليس أقدر على هذا من أبي العتاهية، وهو في الحبس. فقال أبو العتاهية: توجه إلي الرشيد فقال لي: قل شعرا حتى أسمعه منهم، ولم يأمر بإطلاقي فغاظني ذلك، فقلت: والله لأقولن شعرا يحزنه ولا يسره فنظمت هذه الأبيات ودفعتها إلى من حفظها من الملاحين:

خانـك الطـرف الطمـوح أيهـا القلـب الجـموح
لدواعـي الخـير والشـر دنـو ونـزوح
هـل لمطلـوب بذنـب توبـة منـه نصـوح
كيـف إصـلاح قلـوب إنمـا هـن قـروح
أحسـن اللـه بنـا أن الخطايـا لا تفـوح
فـإذا المسـتور منـا بـين ثوبيـه فضـوح
كـم رأينـا مـن عزيـز طويـت عنـه الكشـوح
صـاح منـه برحيـل صائـح الدهـر الصـدوح
مـوت بعـض النـاس في الأرض عـلى البعـض فتـوح
سـيصير المـرء يومـا جسـدا مـا فيـه روح
بـين عينـي كل حـي علـم المـوت يـلوح
كلنـا في غفلـة والـ مـوت يغـدو ويـروح
كل نطـاح مـن الدهـ ـر لـه يـوم نطـوح
نـح عـلى نفسـك يامسـ ـكين إن كنـت تـنوح
لسـت بالباقـي وإن عمـ ـرت مـا عمـر نـوح

فلـما سـمع الرشـيد هـذه الأبيـات تأثـر بهـا كثـيرا وكان ممـن يتأثـرون بالمواعـظ وكان أيضـا من أشـد الناس عسـفا وقـت الغضب. ولمـا لاحظ الفضل بـن الربيـع كـثرة بـكاء الرشـيد أومـأ إلى الملاحـين أن يسـكتوا.

خاتمة

تـوفي أبـو العتاهيـة سـنة ٢١١ هـ/ ٨٢٦ م، وقـد أبـدع وتألـق في شـعره على الرغـم مـن أن جـل شـعره يتعلق بموضوع واحـد وهو الوعـظ والحكمة، وهذا يـدل عـلى الغـزارة والقـوة الشـعرية التـي كان يمتلكها، رحمه اللـه تعالى.

الأصمعي

حياته ونسبه

عاش عبد الملك بن علي بن أصمع الملقب بالأصمعي عمرا مديدا تجاوز التسعين عاما وعاصر العديد من الخلفاء العباسيين. ولد في البصرة سنة ١٢١ هجري، وكان كثير التجوال في البوادي ينهل من علومها ويتلقى أخبارها وطرائفها ويتحف بها الخلفاء.

مؤلفاته

اشتهر الأصمعي في الأدب وله عدة مؤلفات مثل كتاب الأصمعيات والإبل وخلق الإنسان والأمثال وغيرها. يشتمل كتابه الأصمعيات على مختارات من الشعر الجاهلي والمخضرم والإسلامي ويحتوي على اثنتين وتسعين قصيدة. ويعتبر كتاب الأمثال أحد الكتب التراثية الثمينة للأصمعي وقد افتقدته المكتبة العربية، وقد ذكره المصنفون القدماء وأفادوا منه ثم ضاع بعد ذلك ولم يعثر له على أثر سوى ما كان متفرقا منه هنا وهناك في بطون الكتب والمصنفات. لم يكن الأصمعي أديبا فحسب، بل كان من الحفاظ والرواة وقد نسبت إليه بعض القصائد التي ربما لم يكتبها بنفسه كقصيدة صوت صفير البلبل.

الأصمعي والمنصور

يذكر أن الأصمعي كتب هذه القصيدة لأن أمير المؤمنين أبو جعفر المنصور كان قوي الذاكرة ويستطيع أن يحفظ الشعر من أول مرة يسمعه وعنده جارية تحفظ الشعر إذا سمعته مرتين وغلام إذا سمعه ثلاث. وخصص المنصور جائزة لمن يأتي بقصيدة جديدة لم يسمعها أحد من قبل، وهي وزن ما كتبت عليه ذهبا.

كان الشعراء يتوافدون إلى أمير المؤمنين وكلما ألقى شاعر قصيدته قال المنصور سمعنا هذه القصيدة من قبل، فيعيدها ويأمر الجارية والغلام بإعادة القصيدة أيضا. تحير الشعراء من هذا الأمر فقال أحدهم للأصمعي: أرأيت ما يفعل أمير المؤمنين؟ نكتب القصيد ونلقيها عنده ثم يقول هذه ليست لكم، لقد سمعتها من قبل ويعيدها على أسماع الشعراء. فكر الأصمعي قليلا ثم أدرك أن في الأمر خدعة وقرر أن ينظم قصيدة يستحيل حفظها من أول مرة يسمعها الإنسان، وكانت النتيجة لاميته المشهورة «صوت صفير البلبل» وقدم بها إلى المنصور، حيث يقول فيها:

صوت صفير البلبل هيج قلبي الثمل
الماء والزهر معا مع زهر لحظ المقل
وانت ياسيدلي وسيدي ومولي
فكم فكم تيمني غزيل عقيقل
قطفته من وجنة من لثم ورد الخجل
فقال لالالالا وقد غدا مهرول
والخود مالت طربا من فعل هذا الرجل
فولولت وولولت ولي ولي ياويلي
فقلت لاتولولي وبيني اللؤلؤ لي
والعود دن دن دن لي والطبل طبطب لي
طبطبطب طبطبطب طبطبطب طبطب لي

إلى نهاية القصيدة. ولم يستطع المنصور ولا الجارية والغلام حفظ أو إعادة القصيدة، فقال الأصمعي: هل سمعت بهذه القصيدة من قبل يا مولاي؟ قال المنصور: لا والله لم أسمع بها من قبل، وأمر المنصور أن يعطوه وزن ما كتبت عليه ذهبا. قال الأصمعي لكني لم أكتبها على ورق وإنما ورثت عمود رخام من أبي فنقشتها عليه نقشا وهو على ظهر ناقتي عند باب القصر ولا يحمله إلا عشرة من الجند. قال وزير المنصور: كل ما في بيت مال المسلمين لا يعدل وزن هكذا عمود! وقال الوزير للأصمعي أيضا: أترضى أن ينفد بيت مال المسلمين؟ قال لا! ولكن يا أمير المؤمنين قطعت أرزاق الشعراء بذاكرتك القوية، وإني أتنازل عن حقي على أن تعطوا كل شاعر حقه بما قال.

ماذا قال عنه العلماء؟

قال الأخفش ما رأينا أحدا أعلم بالشعر من الأصمعي. وقال أبو الطيب اللغوي: كان الأصمعي أتقن القوم للغة وأعلمهم بالشعر. وقد أثنا عليه الإمام أحمد بن حنبل رضي الله عنه. وقال عمر بن شبة: سمعت الأصمعي يقول أحفظ ستة عشر ألف أرجوزة. وقال محمد بن الأعرابي: شهدت الأصمعي وقد أنشد نحوا من مائتي بيت، ما فيها بيت عرفناه. وقال الربيع: سمعت الشافعي يقول: ما عبر أحد عن العرب بأحسن من عبارة الأصمعي. وقال أبو داود: صدوق . وقال أبو داود السنجي سمعت الأصمعي يقول: إن أخوف ما أخاف على طالب العلم إذا لم يعرف النحو أن يدخل في جملة قوله ﷺ: «من كذب علي فليتبوأ مقعده من النار». وقال نصر الجهضمي: كان الأصمعي يتقي أن يفسر الحديث، كما يتقي أن يفسر القرآن .وقال ثعلب: قيل للأصمعي: كيف حفظت ونسوا ؟ قال درست وتركوا. وكان الأصمعي يقول: أحفظ عشرة آلاف أرجوزة.

فصاحة الأعراب

كان الأصمعي يتحدث في أحد المجالس فأراد أن يستشهد بآية فقال: والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاء بما كسبا نكالا من الله والله غفور رحيم. وكان هناك أعرابي في المجلس، فسأل الأعرابي: كلام من هذا يا أصمعي؟ فقال الأصمعي: كلام الله. قال الأعرابي هذا ليس بكلام الله! عندها كثر اللغط في المجلس حيث غضب الناس على الأعرابي لأنهم ظنوا أنه ينكر آية من كتاب الله. ثم سأله الأصمعي، هل تحفظ القرآن؟ قال الأعرابي: لا! قال الأصمعي: هل تحفظ سورة المائدة؟ قال: لا! ولكن هذا ليس بكلام الله! طلب الأصمعي أن يأتوه بالقرآن ثم قرأ قوله تعالى بعد بسم الله الرحمن الرحيم (وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ) المائدة/٣٨. أعجب الأصمعي بذكاء الأعرابي ودقة ملاحظته فسأله: كيف عرفت يا أعرابي؟ فقال: يا أصمعي عز

فحكم فقطع، ولو غفر ورحم لما قطع. أي أن الغفران والرحمة لا تتناسب مع هذا الموقف الذي يتطلب الشدة والتنفيذ في الحكم خصوصا أن الآية تتحدث عن حكم شديد من أحكام الإسلام وهو قطع اليد درءا للمفاسد وردعا لمن تسول له نفسه بالسرقة.

الأصمعي وهارون الرشيد

قال الأصمعي: كنت بالبصرة أطلب العلم، وأنا فقير. وكان على باب زقاقنا بقال، إذا خرجت باكرا يقول لي إلى أين؟ فأقول إلى فلان المحدث. وإذا عدت مساء يقول لي: من أين؟ فأقول من عند فلان اللغوي. فيقول البقال: يا هذا، اقبل وصيتي، أنت شاب فلا تضيع نفسك في هذا الهراء، واطلب عملا يعود عليك نفعه وأعطني جميع ما عندك من الكتب فأحرقها. فوالله لو طلبت مني بجميع كتبك جزرة، ما أعطيتك! فلما ضاق صدري بمداومته هذا الكلام، صرت أخرج من بيتي ليلا وأدخله ليلا، وحالي يزداد ضيقا، حتى اضطررت إلى بيع ثياب لي، وبقيت لا أهتدي إلى نفقة يومي، وطال شعري، وبلي ثوبي، واتسخ بدني. فجاءني ذات يوم خادم للأمير محمد بن سليمان الهاشمي «والي البصرة» فقال لي: أجب الأمير، فقلت: ما يصنع الأمير برجل بلغ به الفقر إلى ما ترى؟ فلما رأى سوء حالي وقبح منظري، رجع فأخبر محمد بن سليمان بخبري، ثم عاد إلي ومعه كيس فيه ألف درهم فسررت سرورا شديدا، ودعوت له. ومضيت بعد ذلك معه حتى دخلت على محمد بن سليمان، فلما سلمت عليه، قربني ورفعني ثم قال: يا عبد الملك، قد سمعت عنك، واخترتك لتأديب ابن أمير المؤمنين، فتجهز للخروج إلى بغداد. فشكرته ودعوت له، وقلت: سمعا وطاعة. سآخذ شيئا من كتبي وأتوجه إليه غدا.

عدت إلى داري فأخذت ما احتجت إليه من الكتب، وجعلت باقي الكتب في حجرة سددت بابها، وأقعدت في الدار عجوزا من أهلنا تحفظها. فلما وصلت إلى بغداد دخلت على أمير المؤمنين هارون الرشيد. قال: أنت

عبد الملك الأصمعي؟ قلت: نعم، أنا عبد أمير المؤمنين الأصمعي. قال: اعلم إن ولد الرجل مهجة قلبه، وها أنا أسلم إليك ابني محمدا بأمانة الله. فلا تعلمه ما يفسد عليه دينه، فلعله أن يكون للمسلمين إماما. قلت: السمع والطاعة. فأخرجه إلي، وحولت معه إلى دار قد أخليت لتأديبه، وأجرى علي في كل شهر عشرة آلاف درهم. فأقمت معه حتى قرأ القرآن، وتفقه في الدين، وروى الشعر واللغة، وعلم أيام الناس وأخبارهم. واستعرضه الرشيد فأعجب به وقال: أريد أن يصلي بالناس في يوم الجمعة، فاختر له خطبة فحفظه إياها. فحفظته عشرا، وخرج فصلى بالناس وأنا معه، فأعجب به الرشيد وأتتني الجوائز والصلات من كل ناحية، فجمعت مالا عظيما اشتريت به عقارا وضياعا وبنيت لنفسي دارا بالبصرة.

وبعد الانتهاء من تأديب ابن أمير المؤمنين قال هارون الرشيد للأصمعي إن شئت بقيت قربنا وإن شئت ذهبت إلى البصرة. فاختار الأصمعي البصرة. قال الرشيد للأصمعي قبل أن يغادر: تمنى يا عبد الملك! قال الأصمعي: لا أحتاج شيئا، بعد أن أكثر الرشيد له الهدايا. قال الرشيد مرة ثانية: تمنى يا عبد الملك فقلت: يا أمير المؤمنين أكتب إلى والي البصر أن يستقبلني هو وحاشيته عندما أصل إلى البصرة وأكتب إليه أيضا أن يأمر الناس أن يأتوا للسلام علي، ففعل أمير المؤمنين ذلك واستقبله الوالي وأتى الناس للسلام عليه وقد علموا ما صار إليه حال الأصمعي. قال الأصمعي: تأملت من جاءني، فإذا بينهما البقال وعليه عمامة وسخة، وجبة قصيرة. فلما رآني صاح: عبد الملك! فضحكت من حماقته ومخاطبته إياي بما كان يخاطبني به الرشيد ثم قلت له: يا هذا! قد والله جاءتني كتبي بما هو خير من الجزرة! - من كتاب الفرج بعد الشدة للتنوخي.

وتذكرنا قصة الأصمعي والبقال بقول الشاعر أحمد شوقي: العلم يبني بيوتا لا عماد لها والجهل يهدم بيوت العز والكرم. لأن العلم كانت نتائجه عظيمة على الأصمعي ولا شك أن مثل هذا يتطلب الصبر والمثابرة لتحقيق الأهداف التي نصبوا إليها. توفي الأصمعي، رحمه الله تعالى، سنة ٢١٦ هـ.

أبو تمام

حياته ونسبه

هو حبيب بن أوس بن الحارث الطائي، ويعرف بأبي تمام. ولد في مدينة جاسم في محافظة درعا السورية خلال فترة حكم هارون الرشيد سنة ١٨٨هـ / ٨٠٤ م. ويعود نسبه إلى قبيلة طي. رحل أبو تمام من دمشق إلى مصر ومن ثم استقدمه المعتصم إلى بغداد وقدمه على الشعراء الآخرين بذلك الوقت، وتولى بريد الموصل لكنه توفي بعد عامين. كان أسمرا طويلا، حلو الكلام. وكان يحفظ أربعة عشر ألف أرجوزة ويعتبر من كبار شعراء العصر العباسي، أي من طبقة المتنبي والبحتري.

شعره

تميز أبو تمام في مختلف فنون الشعر وقدم قصائد رائعة في المدح والهجاء والرثاء والغزل والوصف، كوصف معركة عمورية. اتسم شعره بالقوة والجزالة وغزارة المفردات. وهو أحد الشعراء الذين ساهموا في توثيق التاريخ من خلال قصائدهم فقد وصف كثيرا من الأحداث المهمة التي حدثت خلال حياته. وكانت قصائده أيضا غزيرة المعاني وقوية السبك وتدل على ثقافة الشاعر واطلاعه الواسع، حيث قال في أحدى قصائده:

قل لابن طوق رحى سعد إذا خبطت نوائب الدهر أعلاها وأسفلها
أصبحت حاتمها جودا وأحنفها حلما وكيسها علما ودغفلها
مالي أرى الحجرة الفيحاء مقفلة عني وقد طالما استفتحت مقفلها
كأنها جنة الفردوس معرضة وليس لي عمل زاك فأدخلها

وقال أيضا:

نفق المديح ببابه فكسوته عقدا من الياقوت غير مثقب
أولى المديح بأن يكون مهذبا ما كان منه في أغر مهذب

غربت خلائقه وأغرب شاعر فيه فأحسن مغرب في مغرب
لما كرمت نطقت فيك بمنطق حق فلم آثم ولم أتحوب

مصنفات أبي تمام

رغم أن أبا تمام لم يعش طويلا، زهاء اثنتي وأربعين عاما فقط، إلا أنه قدم العديد من المصنفات الجميلة مثل فحول الشعراء وديوان الحماسة ومختار أشعار القبائل وديوانه الشعري، إضافة إلى مصنفات أخر. وروى الصولي أن أبا تمام كان حسن الصوت وكان ينشد شعره بين أيدي الخلفاء والأمراء، وصحب الخليفة المعتصم أحيانا.

اتصاله بالخلفاء

اختلط أبو تمام بالكثير من العلماء والشعراء، واطلع على علوم مختلفة منها الدينية والأدبية واللغوية والفلسفة مما زاد في ثقافته العامة وقوته الشعرية. وتنقل أيضا بين المدن المصرية ومكث في الإسكندرية زهاء خمس سنين، عاد بعدها إلى الشام ومن ثم إلى العراق.

كان المأمون أول خليفة يمدحه أبو تمام ولكن صلته بالمأمون لم تكن قوية مثلما كانت مع المعتصم. عندما سمع منه المعتصم أجازه وقدمه على شعراء عصره ورافق المعتصم أثناء غزوه للروم، في معركة عمورية، ووصف المعركة والانتصارات التي تلتها، قائلا:

السيف أصدق إنباء من الكتب في حده الحد بين الجد واللعب
بيض الصفائح لا سود الصحائف في متونهن جلاء الشك والريب
والعلم في شهب الأرماح لامعة بين الخميسين لافي السبعة الشهب
أين الرواية بل أين النجوم وما صاغوه من زخرف فيها ومن كذب
تخرصا وأحاديثا ملفقة ليست بنبع إذا عدت ولاغرب
وصيروا الأبرج العليا مرتبة ما كان منقلبا أو غير منقلب
يقضون بالأمر عنها وهي غافلة ما دار في فلك منها وفي قطب

لـــو بينـــت قـــط أمـــرا قبـــل موقعه ... لم تخـــف ماحـــل بالأوثـــان والصلب
فتـــح الفتـــوح تعـــالى أن يحيـــط به ... نظـــم من الشـــعر أو نثر مـــن الخطب
يـــا يـــوم وقعـــة عموريـــة انصرفت ... منـــك المنى حفـــلا معســـولة الحلب
أبقيـــت جـــد بنـــي الإســـلام في صعد ... والمشركـــين ودار الـــشرك في صبـــب
تدبـــير معتصـــم باللـــه منتقـــم ... للـــه مرتقـــب في اللـــه مرتغـــب
رمـــى بـــك اللـــه برجيهـــا فهدمهـــا ... ولـــو رمـــى بـــك غـــير اللـــه لم يصب
أجبتـــه معلنـــا بالســـيف منصلتـــا ... ولـــو أجبـــت بغـــير الســـيف لم تجب
تســـعون ألفا كآســـاد الـــشرى نضجت ... جلودهـــم قبل نضـــج التـــين والعنب
أبقت بنـــي الأصفر الممراض كاســـمهم ... صفـــر الوجـــوه وجلت أوجـــه العرب

مقتطفات في الحب

اختلفت نظرة الشعراء والأدباء حول الحب، وربما كان لكل واحد منهم سببا جعله ينظر إلى الحب نظرة تختلف عن الآخر. فأبو تمام كان يعطي أهمية كبرى للحب الأول وقال بيتين خالدين لا يزال كثير من الناس يحفظونهم جيدا حتى يومنا هذا، ولعل هذين البيتين أشهر ما قاله أبو تمام من شعر، وهما:

نقـــل فؤادك حيث شـــئت مـــن الهوى ... مـــا لحـــب إلا للحبيـــب الأول
كـــم منـــزل في الأرض يألفـــه الفتـــى ... وحنينـــه أبـــدا لأول منـــزل

ولكن أبو الحسن بن طباطبا العلوي كانت له رؤية مختلفة عن أبي تمام، فهو يرى أن الحب الحقيقي هو لآخر حبيب، فقال:

دع حـــب أول مـــن كلفـــت بحبـــه ... مـــا الحـــب إلا للحبيـــب الآخـــر
مـــا قـــد تـــولى لا ارتجـــاع لطيبـــه ... هـــل غائـــب اللـــذات مثـــل الحاضر
إن المشـــيب وقـــد وفى بمقامـــه ... أوفى لـــدي مـــن الشـــباب الغـــادر
دنيـــاك يومـــك دون أمســـك ... مـــا الســـالف المفقـــود مثـــل الغابر

ويتفق الشاعر عبد السلام الحمصي أو ما يعرف باسم ديك الجن، وهو أيضا من شعراء العصر العباسي، مع ابن طباطبا حيث قال:

نقل فـــؤادك حيث شـــئت فلـــن ترى ... كهـــوى جديـــد أو كوجـــه مقبـــل
عشـــقي لمنـــزلي الـــذي اســـتحدثته ... أمـــا الـــذي ولى فليـــس بمنـــزل

ولم يتوقف الشعراء عند هذا الحد، فقد خالفها جميعا شاعر آخر لأنه كان يرى أن القلب يتسع لمزيدا من الحب ويتسع لأكثر من حبيب، فقال:

قلبي رهين بالهوى المقتبل فالويل لي في الحب إن لم أعدل
أنا مبتلى ببليتين من الهوى شوق إلى الثاني وذكر الأول
فهما حياتي كالطعام المشتهى لا بد منه وكالشراب السلسل
قسم الفؤاد لحرمة وللذة في الحب من ماض ومن مستقبل
إني لأحفظ عهد أول منزل أبدا وآلف طيب آخر منزل

الخاتمة

عاش أبو تمام آخر حياته في مدينة الموصل، في العراق، وتولى بريد الموصل في آخر سنتين من حياته. توفي، رحمه الله، سنة ٢٣١ هـ /٨٤٦م.

محمد بن جرير الطبري

شيخ المفسرين و المؤرخين

حياته ونسبه

ولد أبو جعفر بمدينة آمل في طبرستان في أواخر سنة ٢٢٤ هـ/ ٨٣٨م، ونشأ بهذه المدينة وأخذ عن شيوخها. تمكن من حفظ القرآن الكريم قبل أن يتجاوز سن السابعة، وأمَّ الناس في الصلاة وعمره ثمان سنين، وبدأ يكتب الحديث وعمره تسع سنين. بدت علامات النبوغ والذكاء على الطبري منذ نعومة أظافره ولاحظ والده هذا الأمر لذلك عهد به إلى علماء المدينة في ذلك الوقت. وقد رأى والده رؤية أستبشر بها خيرا، وتحدث أبو جعفر عن هذه الرؤيا، فقال: (رأى أبي في النوم أنني بين يدي رسول الله ﷺ ومعي مخلاة مملوءة بالأحجار، وأنا أرمي بين يديه). وفسر أحدهم الرؤيا بأنه إن كبر نصح في دينه، ودافع عن شريعته، فحرص بعدها والد محمد، رحمهما الله تعالى، على إعانة ابنه في طلب العلم منذ الصغر. وعندما أصبح شابا يافعا بدأ يتنقل من مكان إلى آخر لطلب العلم فتعلم الفقه في بغداد ومن ثم توجه إلى عدة مدن وبلدان أخرى مثل الكوفة والشام ومصر.

كتبه ومؤلفاته

ترك الطبري، رحمه الله، إرثا عظيما في مجال الدين والتاريخ والأدب. وقال عدد من العلماء أنه لم يصنف مثل الطبري، وله كتب مشهورة وغنية عن التعريف، ولعل أجل أعماله هو تفسير القرآن الكريم، جزاه الله عنا خيرا، ويسمى بتفسير الطبري أو جامع البيان عن تأويل آي القرآن. وكتب أيضا كتاب تأريخ الأمم والملوك أو ما يعرف بتاريخ الطبري، بالإضافة إلى عدة كتب أخرى مثل اختلاف علماء الأمصار في أحكام شرائع الإسلام، صريح السنة، الفصل بين القراءات، آداب القضاة، آداب النفوس، تهذيب الآثار، و فضائل أبي بكر وعمر- رضي الله عنهما.

همة الطبري

يروى أن أبا جعفر قال يوما لتلاميذه: هل تنشطون لتفسير القرآن؟ قالوا: كم سيكون، أي كم عدد أوراق الكتاب الذي تريد أن تكتبه؟ وكان طلابه على علم بالهمة العالية التي كان يتمتع بها الطبري. قال: سيكون نحوا من ثلاثين ألف ورقة. فقالوا: هذا مما تفنى الأعمار قبل تمامه، أي سينقضي العمر ونموت قبل أن نتم هذا الكتاب، فاختصره في ثلاثة آلاف ورقة. وبعد أن انتهى قال لهم: أتنشطون في كتابة التاريخ من عصر آدم إلى يومنا هذا؟ وسألوا نفس السؤال، فقال: في ثلاثين ألف ورقة، أيضا! وكرروا نفس الإجابة، فاختصره في نحو من ثلاثة آلاف ورقة، ثم قال: إنا لله ماتت الهمم! وهكذا كانت همته رحمه الله تعالى.

شعره

لم يتوقف ابن جرير، رحمه الله، على التصنيف والتفسير وكتابة كتب التاريخ وإنما كانت له بصمة أخرى في الشعر. لقد رويت عنه بعض القصائد سنذكر منها بعض الأبيات. قال الطبري في أبيات تعبر عن حيائه وقناعته بما رزقه الله تعالى، وهجره الدنيا وملذاتها:

إذا أعسرت لم يعلم رفيقي وأستغني فيستغني صديقي
حيائي حافظ لي ماء وجهي ورفقي في مطالبتي رفيقي
ولو أني سمحت ببذل وجهي لكنت إلى الغنى سهل الطريق

وقال أيضا:

خلقان لا أرضى طريقهما بطر الغنى ومذلة الفقر
فإذا غنيت فلا تكن بطرا وإذا افتقرت فته على الدهر

شيوخ الطبري وتلاميذه

لقي الإمام ابن جرير الطبري علماء كثر، وسمع من شيوخ يصعب حصرهم، ومن الشيوخ الذين أخذ عنهم الطبري محمد بن حميد الرازي التميمي أبو عبدالله، وعمران بن موسى الليثي البصري، وأبو همام الوليد بن شجاع السكوني حيث لقيه في الكوفه، ومحمد بن عبد الملك بن أبي الشوارب البصري الأموي، وإسماعيل بن يحيى المزني صاحب الشافعي حيث لقيه بالقاهرة وأخذ عنه الفقه، وغيرهم.

وقد كان الكثير من الطلاب يحضرون مجالسه وكثير من العلماء تتلمذ على يديه ومن هؤلاء: أبو شعيب عبد الله بن الحسن الحراني وكان أكبر من ابن جرير، والإمام الحافظ أبو القاسم سليمان بن أحمد الطبراني صاحب المعاجم والسنن والتصانيف، والشيخ القاضي أبوبكر أحمد بن كامل قاضي الكوفة وصاحب التصانيف في الفقه، وأبو أحمد عبدالله بن عدي صاحب الكتاب الحافل (الكامل في ضعفاء الرجال)، والقاضي أبو الفرج المعافى بن زكريا النهرواني، ومحمد بن عبد الله الشافعي، وأحمد بن موسى بن العباس التميمي، و كثير غيرهم.

ماذا قال عنه العلماء؟

قال الإمام النووي: أجمعت الأمة على أنه لم يصنف مثل الطبري. وقال ابن الأثير: أبو جعفر أوثق من نقل التاريخ وفي تفسيره ما يدل على علم غزير وتحقيق، وكان مجتهدا في أحكام الدين لا يقلد أحدا بل قلده بعض الناس وعملوا بأقواله وآرائه وكان أسمرا، أعين، نحيف الجسم، فصيح اللغة. وقال الذهبي: الإمام الجليل، المفسر أبو جعفر، صاحب التصانيف الباهرة، من كبار أئمة الإسلام المعتمدين، وكان ثقة حافظا صادقا، رأسا في التفسير، إماما في الفقه والإجماع والاختلاف، علامة في التاريخ وأيام الناس، عارفا بالقراءات واللغة، وغير ذلك.

وقال ابن تيمية: وأما التفاسير التي في أيدي الناس فأصحها تفسير محمد بن جرير الطبري، فإنه يذكر مقالات السلف، بالأسانيد الثابتة، وليس فيه بدعة، ولا ينقل عن المتهمين. وقال الخطيب البغدادي: كان أحد أئمة العلماء، يحكم بقوله، ويرجع إلى رأيه لمعرفته وفضله، وكان قد جمع من العلوم ما لم يشاركه فيه أحد من أهل عصره، وكان حافظا لكتاب الله، عارفا بالقراءات كلها، بصيرا بالمعاني، فقيها في أحكام القرآن، عالما بالسنن وطرقها وصحيحها وسقيمها، وناسخها ومنسوخها، عارفا بأقوال الصحابة والتابعين ومن بعدهم، قل أن ترى مثله العيون، وكان عارفا بأيام الناس وأخبارهم.

وعندما توفي الطبري رثاه أبو بكر بن دريد بقصيدة، هذه بعض من أبياتها:

لن تستطيع لأمر الله تعقيبا ... فاستنجد الصبر أو فاستشعر الحوبا
وافزع إلى كنف التسليم وارض بما ... قضى المهيمن مكروها ومحبوبا
إن المنية لم تتلف به رجلا ... بل أتلفت علما للدين منصوبا
لا ينسري الدهر عن شبه له أبدا ... ما استوقف الحج بالأنصاب أركوبا
كانت حياتك للدنيا وساكنها ... نورا فأصبح عنها النور محجوبا
لو تعلم الأرض من وارت لقد خشعت ... أقطارها لك إجلالا وترحيبا
إن يندبوك فقد ثلت عروشهم ... وأصبح العلم مرثيا ومندوبا

خاتمة

لقد عاش الطبري عمرا طويلا وقضى جل عمره في طلب العلم والتصنيف وتأليف الكتب. لقد عاش خمس وثمانين عاما، وتوفي رحمه الله يوم الأحد ٢٦ من شهر شوال في مدينة بغداد سنة ٣١٠ هـ/ ٩٢٣م. وقال ابن كثير: توفي الطبري عن عمر ناهز الثمانين بخمس سنين، وفي شعر رأسه ولحيته سواد كثير.

ياقوت الحموي

حياته ونسبه

نتحدث في هذا الجزء عن مقتطفات تاريخية وأدبية وجغرافية لشخصية جديدة نبغت في مجالات عدة لاسيما الجغرافية منها. إنه مؤلف كتاب معجم البلدان وكتاب معجم الأدباء شهاب الدين أبو عبدالله ياقوت بن عبدالله الحموي ويلقب بالحموي نسبة إلى مدينة حماة السورية. لم يكن الحموي جغرافيا فحسب إنما كان أديبا وشاعرا ومؤرخا وخطاطا ولغويا ورحالة، وهذا دأب الكثير من علمائنا الذين برعوا في مجالات وتخصصات مختلفة خلال العصور السالفة. ولد أبو عبدالله في مدينة حماة سنة ١١٧٨م.

تنقل الحموي في الكثير من البلدان في صغره، وكان يعمل في خدمة التاجر عسكر بن أبي نصر البغدادي الذي عامله معاملة حسنة كمعاملة الابن. حفظ القرآن منذ الصغر وكان يقرأ الكتب في مسجد المدينة التي حفظ بها القرآن وشجعه إمام المسجد على ذلك. كان الحموي يدون ملاحظاته أثناء سفره حول الأماكن والبلدان والمساجد والقصور والآثار القديمة والحديثة. وفي عام ١٢٠٠م ترك ياقوت الحموي تجارة عسكر وفتح دكانا متواضعا بحي الكرخ في بغداد ينسخ فيه الكتب لمن يقصده من طلاب العلم، وجعل جدران الدكان رفوفا يضع بها ما لديه من الكتب. وكان في الليل يتفرغ للقراءة، وأدرك ياقوت أهمية التمكن من اللغة والأدب والتاريخ والشعر فنظم لنفسه أوقاتا لدراسة اللغة.

مؤلفاته

عاش ياقوت حياة غير مستقرة، ورغم ذلك فقد صنف كتبا كثيرة من أهمها معجم البلدان و معجم الأدباء والمبدأ والمآل في التأريخ وأخبار المتنبي وغيرها. لقد تمكن الحموي من تحصيل علوم مختلفة في سن مبكرة

ونبغ في مجال الجغرافية حيث تنقل بين بلدان كثيرة وعمل في تجارة الكتب ولقي الكثير من العلماء والأدباء خلال أسفاره وزار مدنا كثيرة منها نيسابور وتزوج فيها لكنه لم يقم هناك طويلا إذ عاود السفر وتجارة الكتب مرة ثانية بين مدائن خراسان. لقد كان الحموي يتحقق من الأخبار التي يسمعها فقد سمع بأن سكان مرو -إحدى مدائن خراسان- بخلاء فمكث فيها فترة من الزمن وتيقن بأن ما سمعه لم يكن دقيقا ولكن أهلها كانوا لينيي الأخلاق ويؤثرون الاعتدال والاقتصاد ويكرهون الإسراف، والإسراف أصلا صفة مذمومة. هنا بدأ الحموي مشروعه العظيم وهو وضع معجم جغرافي عن ما سمعه ورآه وفيه وصف دقيق لهذه المواقع مراعيا لخطوط الطول والعرض. يضم الكتاب أيضا نبذة تاريخية عن تلك المواقع وسكانها. وسمى الحموي هذا الكتاب بـ «معجم البلدان». سافر ياقوت إلى مدينة حلب السورية بعد اجتياح المغول لمدينة مرو واستقر هناك وبدأ بتجميع معجم البلدان.

معجم البلدان

يعد معجم البلدان موسوعة جغرافية ضخمة جمعت بعدة مجلدات ومصدرا تاريخيا هاما لوصف الحقبة التي عاش بها الحموي وقد تمت طباعة الكتاب وترجمته إلى عدة لغات. استهل الحموي كتابه بمقدمة تتكلم عن مواضيع مختلفة تتقدمها الجغرافية. وذكر في المقدمة بعض أعمال الجغرافيين الذين سبقوه وفي نهاية المقدمة أعطى معلومات مفصلة عن المعجم. لقد تحدث الحموي في معجم البلدان عن النظريات الجغرافية التي تناولت شكل الأرض وأعتبرها كروية حيث يخالف هذا الوصف رأي بعض العلماء القدامى الذين كانوا ينفون كروية الأرض نتيجة لتفسير بعض الآيات القرآنية علما بأن جميع هذه الآيات لا تشير إلى أن الأرض غير كروية. قال تعالى (وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ) الذاريات/ ٤٨. وهذه

الآيـة لا تنفـي كرويـة الأرض وقـد فسرهـا الإمـام الحافـظ ابن كثير رحمـه الله قائـلا: فرشـناها؛ أي: جعلناها فراشـا للمخلوقات، وقال عن نعـم الماهدون: أي جعلناهـا مهـدا لأهلهـا. ففرشـت الأرض ومهدت لتكـون صالحة للعيـش عليها واللـه أعلم.

معجم الأدباء

جمـع الحمـوي فيـه أخبـار الأدبـاء القدامـى إلى العـصر الـذي عـاش فيـه ورتبهـم فيـه حسـب حـروف المعجم، وأشـار إلى من اشـتغل منهـم بالكتابة أو الوراقـة أو النسـخ أو الشـعر. ويعتـبر الكتـاب موسـوعة ضخمـة للأدبـاء. لقـد ذكـر ياقـوت في «مقدمتـه» كتـب التراجـم الكثـيرة التـي اسـتفاد منهـا، وتـدل القائمـة الكبـيرة التـي ذكرهـا عـلى أنـه علم مـن أعـلام ومؤلفي الموسـوعات في التاريـخ. لقـد عـرف هـذا الكتـاب باسـم معجـم البلـدان رغـم أن الحمـوي لم يطلـق عليـه هذا الاسـم إنما أسـماه «إرشـاد الأريـب إلى معرفة الأديـب»، لكن الاسـم الدخيـل غلب الاسـم الأصلي للكتاب. كان المسـتشرق والمبـشر الإنكليزي داوود صموئيـل مرجليـوت هـو مـن أطلـق اسـم معجـم البلـدان عـلى كتـاب ياقـوت وهـو أسـتاذ في جامعة أكسـفورد ونشر الكتـاب عـام ١٩٠٧، ويظهر أن النسـخ المتداولـة هـي استنسـاخ مـن هـذه الطبعة.

يتألـف الكتـاب من مقدمـة وفصلين وتراجـم الأدباء ويناقـش الفصل الأول فضـل الأدب وأهلـه وذم الجهـل بينما يناقش الفصل الثـاني فضيلة علم الأخبار ويليـه تراجـم الأدبـاء وهـم مرتبـون حسـب حـروف الهجـاء وبلـغ عددهـم ١٠٧١. يـشرح المؤلـف في المقدمـة حبـه للأدب والعلـم وأخبار العلـماء والأدباء وقـد أشـار إلى عدد مـن الكتب والمصنفـات التي كانت موجـودة في زمانه مثل كتـاب أبي بكـر التاريخي وأبي سـعيد السـيرافي وغيرهم.

تميـزت كتـب ياقوت الحموي بالدقة والأمانة في النقل وكان كثير الاستشـهاد بالقـرآن الكريـم والسـنة النبوية العطـرة لدعم ما يصف أو يحلـل من ظواهر.

وكان الحموي يحدد أولا الموقع الذي يريد أن يكتب عنه حسب خطوط الطول والعرض ثم يبين أهمية الموقع ويسرد تاريخ سكانه وطبيعة المنطقة وكان يحرص كثيرا على ذكر النطق الصحيح والدقيق للأسماء.

ديوانه الشعري

لم يتوقف الحموي عند حدود الجغرافية والتاريخ والخط إنما أولى جانبا من اهتماماته للشعر، ونجح في ذلك وقدم قصائد رائعة جمعت بديوان شعري جميل. وقد قيل إن الحموي يقول الشعر ولكنه لا يمدح أحدا بشعره أبدا. وهنا بعض الأبيات من قصائده:

إن غاض دمعك والأحباب قد بانوا فكل ما تدعي زور وبهتان
وكيف تأنس أو تنسى خيالهم وقد خلى منهم ربع وأوطان
لا أوحش الله من قوم نأوا فنأى عن النواظر أقمار وأغصان
ساروا فسار فؤادي إثر ظعنهم وبان جيش اصطباري ساعة بانوا

وقال أيضا:

تنَّكر لي مذ شبت دهري فأصبحت معارفه عندي من النكرات
إذا ذكرتها النفس حنت صبابة وجادت شؤون العين بالعبرات
إلى أن أتى دهر يحسن ما مضى ويوسعني من ذكره حسرات

خاتمة

رغم أن الحموي عاش حياة متقلبة ولم يستقر في مكان لفترة طويلة، لكنه ترك بصمات خالدة في مجالات متنوعة كالجغرافية والأدب والشعر والتاريخ وغيرها. وقيل إن الحموي منح كتبه كوقف في أحد المساجد وأنه سلمها لصديقه الشيخ عز الدين أبي الحسن علي بن الأثير- المؤرخ وصاحب كتاب الكامل في التاريخ - رحمهما الله تعالى، فحملها إلى مسجد الزيدي ببغداد. وكان الناس يذكرون الحموي ويثنون عليه بالخير ويذكرون فضله وأدبه بعد موته. توفي، رحمه الله تعالى، في مدينة حلب السورية سنة ١٢٢٣م. .

ابن زريق البغدادي

حياته ونسبه

هو أبو الحسن علي بن زريق البغدادي، ولد في العصر العباسي ولم يذكر تاريخ دقيق لولادته. تزوج من ابنة عمه، وكان يحبها كثيرا. أصيب بالفقر الشديد نهاية حياته وكان يعاني من ضيق العيش، فقرر ذات يوم أن يتوجه إلى الأندلس لعله يستطيع تغيير ذلك الواقع المرير. تشبثت به زوجته وحاولت منعه ودعته إلى البقاء لكي يتجنب مخاطر السفر إلى الأندلس، التي تفصلها مسافات شاسعة عن بغداد، لكنها لم تستطع إلى ذلك سبيلا.

سمي البغدادي بشاعر القصيدة الواحدة لأنه لم تدون له سوى هذه القصيدة ولم نسمع أنه كتب غيرها. وشعراء القصيدة الواحدة هم ثلاثة: ابن زريق والمنخل اليشكري صاحب قصيدة «فتاة الخدر» ودوقلة بن العبد المنبجي صاحب القصيدة «الدعدية».

السفر إلى الأندلس

لم يصغ ابن زريق لنصح زوجته التي كانت تخاف عليه من عواقب تلك الرحلة وتوجه إلى الأندلس قاصدا الأمير أبي الخير عبد الرحمن الأندلسي في الأندلس حتى يمدحه ويحصل على أعطياته. عندما التقى به الأمير عرف مقصده فأراد أن يختبره إذا ما كان همه فقط الحصول على المال أم هو متعفف ويرضى باليسير لذا أعطاه أعطية زهيدة، فأصابه الحزن الشديد لأنه ترك زوجته وقطع المسافات الطويلة ليتفاجأ بعدها بعطاء زهيد. قال البغدادي: إنا لله وإنا إليه راجعون، لقد هجرت الأهل وقطعت البراري والبحار لأحصل على هذا العطاء الزهيد. أعتل بعدها ومات في الخان الذي حل به أول وصوله إلى الأندلس.

شغل عنه الأمير الأندلسي أياما ثم سأل عنه فخرج هو ومن معه يطلبونه حتى انتهوا إلى الخان، فسألوا عنه صاحب الخان فقال: كان في الخان ولم أبصره منذ أمس، فذهبوا نحو غرفته ودفعوا الباب فوجدوه ميتا وعند رأسه رقعة مكتوب عليها قصيدته الشهيرة. قال الأمير بعد قراءة الأبيات: وددت أن هذا الرجل حي حتى أشاطره نصف مالي. ويذكر أن الأمير قد عرف مكانه الذي كان يعيش به في بغداد فأرسل لأهله خمسة آلاف دينار وحمل إليهم خبر وفاته. تسمى قصيدته عينية ابن زريق وتسمى فراقية ابن زريق لأنها تتحدث عن الفراق وتسمى يتيمة ابن زريق لأنه لم يدون له غير هذه القصيدة التي قال فيها:

لا تعذليه فإن العذل يولعه ... قد قلت حقا ولكن ليس يسمعه
جاوزت في نصحه حدا أضربه ... من حيث قدرت أن النصح ينفعه
فاستعملي الرفق في تأنيبه بدلا ... من عذله فهو مضنى القلب موجعه
قد كان مضطلعا بالخطب يحمله ... فضيقت بخطوب الدهر أضلعه
يكفيه من لوعة التشتيت أن له ... من النوى كل يوم ما يروعه
ما آب من سفر إلا وأزعجه ... رأي إلى سفر بالعزم يزمعه
كأنما هو في حل ومرتحل ... موكل بفضاء الله يذرعه
إذا الزمان أراه في الرحيل غنى ... ولو إلى السند أضحى وهو يزمعه
تأبى المطامع إلا أن تجشمه ... للرزق كدا وكم ممن يودعه
وما مجاهدة الإنسان توصله ... رزقا ولا دعة الإنسان تقطعه
قد وزع الله بين الخلق رزقهم ... لم يخلق الله من خلق يضيعه
لكنهم كلفوا حرصا فلست ترى ... مسترزقا وسوى الغايات تقنعه
والحرص في الرزق والأرزاق قد قسمت ... بغي ألا إن بغي المرء يصرعه
والدهر يعطي الفتى من حيث يمنعه ... إرثا ويمنعه من حيث يطمعه
إني أوسع عذري في جنايته ... بالبين عنه وجرمي لا يوسعه
اعتضت من وجه خلي بعد فرقته ... كأسا أجرع منها ما أجرعه
كم قائل لي ذقت البين قلت له ... الذنب والله ذنبي لست أدفعه
ألا أقمت فكان الرشد أجمعه ... لو أنني يوم بان الرشد اتبعه
إني لأقطع أيامي وأنفقها ... بحسرة منه في قلبي تقطعه
بمن إذا هجع النوام بت له ... بلوعة منه ليلي لست أهجعه
لا يطمئن لجنبي مضجع وكذا ... لا يطمئن له مذ بنت مضجعه

ما كنت أحسب أن الدهر يفجعني ... به ولا أن بي الأيام تفجعه
حتى جرى البين فيما بيننا بيد ... عسراء تمنعني حظي وتمنعه
قد كنت من ريب دهري جازعا فرقا ... فلم أوق الذي قد كنت أجزعه

جولة أدبية في قصيدته

لقد أورثت هذه القصيدة صاحبها، ابن زريق، شهرة كبيرة ولولاها لم يعرف أحد قصته ولم يدون اسمه في دواوين التاريخ والأدب. وتنبض قصيدته برقة التعبير وصدق العاطفة والمشاعر وتبين أنه شاعر مجيد لما تحتويه من الصور وقوة السبك. تبلغ أبيات القصيدة قرابة الأربعين ويظهر فيها حنينه إلى الوطن والديار والأهل، كما في الأبيات التالية:

استودع الله في بغداد لي قمرا ... بالكرخ من فلك الأزرار مطلعه
ودعته وبودي لو يودعني ... صفو الحياة وأني لا أودعه
وكم تشبث بي يوم الرحيل ضحى ... وأدمعي مستهلات وأدمعه
لا أكذب الله ثوب الصبر منخرق ... عني بفرقته لكن أرقعه

إضافة إلى حنين الشاعر لوطنه، تبين القصيدة مرارة العيش التي كان يعانيها ويظهر ندمه لعدم الإصغاء لزوجته عندما حاولت أن تثنيه عن السفر إلى الأندلس، لكنه ندم بعد فوات الأوان، لذا قال في يتيمته:

في ذمة الله من أصبحت منزله ... وجاد غيث على مغناك يمرعه
من عنده لي عهد لا يضيعه ... كما له عهد صدق لا أضيعه
ومن يصدع قلبي ذكره وإذا ... جرى على قلبه ذكري يصدعه
لأصبرن على دهر لا يمتعني ... به ولا بي في حال يمتعه
علما بأن اصطباري معقب فرجا ... فأضيق الأمر إن فكرت أوسعه
عسى الليالي التي أضنت بفرقتنا ... جسمي ستجمعني يوما وتجمعه
وإن تغل أحدا منا منيته ... فما الذي بقضاء الله يصنعه

وتشير القصيدة أيضا إلى أنه كان ميسور الحال ذات يوم خلاف نهاية حياته التي اتسمت بالفقر، قال:

رزقت ملكا فلم أحسن سياسته وكل من لا يسوس الملك يخلعه
ومن غدا لابسا ثوب النعيم بلا شكر عليه فإن الله ينزعه

الخاتمة

كانت حياة ابن زريق تتقلب به من يسر الحال إلى العسر إلى أن انتهى به المطاف متوفيا في بلاد الأندلس بعيدا عن وطنه وأهله. توفي، رحمه الله، سنة ٤٢٠ هـ/ ١٠٢٩ م. اللهم اغفر للمؤمنين والمؤمنات والمسلمين والمسلمات الأحياء منهم والأموات.

الفصل السادس

عصر الدول المتتابعة

(العصر المملوكي)

لم تتسم هذه الفترة الزمنية بالاستقرار السياسي فقد كانت تسقط دويلات وتقوم أخرى ما بين الحين والآخر، وذلك بعد تفكك الخلافة العباسية. وقد تعددت الممالك والدويلات وتعاقب الحكام على كثير منها كحكام العهد الزنكي والأيوبي والمملوكي وكذلك العهد العثماني.

أما من الناحية الأدبية، فلم تختلف موضوعات الشعر في هذا العصر عن موضوعات العصور السابقة من مدح وهجاء وفخر وغزل ورثاء ووصف وشكوى وما إلى ذلك. وكان عدد الشعراء كبير في هذه الفترة لكنهم لم يتميزوا بالجزالة والجودة التي تميز بها شعراء العصور السالفة فكان الشعراء المجيدون قلة قليلة.

ومن بين الشخصيات والحكام الذين كانوا يعتنون بالشعر والشعراء آنذاك صلاح الدين الأيوبي وبعض خلفاءه ومن ثم سار المماليك على هذا النهج. وكان من بين الشعراء الذين تميزوا في العصر المملوكي شهاب الدين محمود الحلبي وابن الوردي عمر بن مظفر بن عمر بن أبي الفوارس البكري المعري.

المغول

المغول ما بين الانتصارات السريعة والسقوط الخاطف

نتحدث في هذا الجزء، إن شاء الله، عن الانتشار الكبير والسريع للإمبراطورية المغولية التي انتشرت كالنار في الهشيم، وسنلقي الضوء على سقوطها المدوي في بلاد الشام. وسنتناول أيضا الحديث عن الأدب وكيف صور الأدباء هذه المرحلة العصيبة على المسلمين التي كانت من أسوأ المراحل في تاريخ الأمة، ولكن مع ذلك، رب ضارة نافعة، وكذلك ليقضي الله أمرا كان مفعولا، وما حدث ذلك إلا بتقدير العزيز الحكيم. سنبين أيضا كيف انقلبت هذه النقمة إلى نعمة، بل وساهمت في نشر الإسلام وعز المسلمين فيما بعد. وسنتحدث عن شاعر مملوكي كبير عاصر الغزو المغولي وهزيمتهم النكراء.

ولادة الإمبراطورية المغولية

ظهر المغول على مسرح أحداث التاريخ العالمي أواخر القرن ٦هـ/١٢م ثم برزوا، كقوة عالمية خارج حدود موطنهم الأصلي، منغوليا، خلال العقدين الأول والثاني من القرن ٧هـ/١٣م. وقد استطاعوا أن يؤسسوا أكبر إمبراطورية عالمية عرفتها البشرية في أقصر مدة، وهي أكبر إمبراطورية من حيث الرقعة، أي ككتلة واحدة، إذ أن الإمبراطورية البريطانية كانت أكبر منها مساحة ولكن تفصل بين أجزائها محيطات وبحار كثيرة. تكونت إمبراطورتيهم الواسعة والمترامية الأطراف خلال ثلاثة عقود وامتدت من الجزر اليابانية والمحيط الهادي شرقا إلى قلب القارة الأوربية غربا، ومن سيبريا وبحر البلطيق شمالا إلى الحدود الشمالية للجزيرة العربية وبلاد الشام وفلسطين جنوبا.

المغول والتتار

نستطيع القول إن التتار مغول وليس المغول تتارا، لأن التتار فرع من المغول، والأصل هم المغول. ويتكون المغول من عدد من القبائل بينها قبائل تركية وقبائل تتارية وكانت ديانتهم وثنية يعبدون الشمس وأشياء أخرى مستوحاة من الطبيعة، وتمسى ديانتهم الشمانية، لكن لم تستطع تعاليم ديانتهم الصمود في وجه الديانات الأخرى كالإسلامية والمسيحية.

غزو الشرق وتدمير بغداد

بدأ المد المغولي التوسع نحو الشرق في عهد جنكيز خان، وبدأ يفكر في إسقاط الخلافة العباسية في بغداد نتيجة بعض المشاكل التي حصلت مع الدولة الخوارزمية. وكان جنكيز خان يدرك صعوبة إسقاط الخلافة في بغداد، ولكن ليس لقوة دولة الخلافة، التي كانت مفككة وجيشها هزيل، بل لبعد المسافة بين الصين والعراق. لذا قرر جنكيز خان بناء قواعد أقرب إلى بغداد، في أفغانستان، لتأمين خطوط الإمداد، ومن ثم الانقضاض على الدولة الخوارزمية، التي كانت تعاني أيضا من العديد من المشاكل، والقلاع الإسماعيلية التي كانت تتواجد في بعض مناطق إيران ومناطق أخرى.

لقد كان هناك عدة عوامل دفعت المغول للتوجه نحو بلاد المسلمين، وكان أبرزها اعتداء بعض رجال الدولة الخوارزمية على تجار مغول بحجة أنهم جواسيس وحاول جنكيز خان أن يعالج المشكلة بالحكمة، لكن تعنت الخوارزميين حال دون ذلك. ويعود نسب الخوارزميون إلى عوائل تركية مسلمة، وحكموا أجزاء واسعة من آسيا وغرب إيران، وكان المغول لا يستطيعون الوصول إلى بغداد إلا بعد القضاء على هذه الدولة. شن المغول حملة كبيرة على الدولة الخوارزمية المنهكة وبدأت مدنها تتساقط واحدة تلو الأخرى واستولوا على بخارا سنة ٦١٦هـ/١٢١٩م.

توفي جنكيز خان عام ١٢٢٦م، وانتخب أوكتاي خانا أعظم للمغول، أي حاكما جديدا، وكان مولعا بالشرب واللهو إلى أن توفي سنة ٦٣٩هـ/١٢٤١م.

اضطربت أحوال الدولة المغولية بعد وفات أوكتاي، ووقع خلاف حول خليفته، إلى أن تولى العرش كيوك خان، خانا أعظم للمغول عام ٦٤٤هـ/ ١٢٤٦ م، ولكنه لم يعش طويلا ومات سنة ٦٤٧هـ/١٢٤٩م، واختير منكو خانا أعظم.

خرج هولاكو على رأس جيشه من قراقورم عاصمة المغول عام ٦٥١هـ/١٢٥٣م، وأعد السفن لعبور الأنهار الكبيرة، كما قام الأمراء في تلك النواحي بحشد أعداد كبيرة من الجند للانضمام إلى جيش هولاكو. وفي شهر شعبان سنة ٦٥٣هـ/١٢٥٥م وصل جيش هولاكو إلى سمرقند، وأمضى بها أربعين يوما ثم توجه إلى مدينة كش، وهناك التحق به كافة الأمراء والأعيان في خراسان وأعلنوا خضوعهم وقدموا هداياهم له وأقام بهذه المدينة قرابة شهر وجه خلاله عدة رسائل إلى الملوك والسلاطين في البلاد المجاورة وطلب منهم مساعدته في تحطيم قلاع الإسماعيلية والقضاء عليهم. وفي مقابل ذلك تعهد لهم بأن يبقيهم على ولاياتهم ولا يتعرض لهم بسوء، وهددهم بأن امتناعهم عن مساعدته يجرهم إلى الهلاك وأنه سينزل بهم ما ينزل بالإسماعيلية.

استولى المغول على الدولة الخوارزمية وبات الطريق مفتوحا أمامهم نحو الغرب، وتولى القيادة في هذه الجبهة هولاكو الذي تلقى دعما كبيرا من الخان الأعظم منكو. وكان هولاكو قد اجتاح القلاع الإسماعيلية أيضا. بعد القضاء على الدولة الخوارزمية، بدأ بتحقيق هدفه الثاني في اسقاط الخلافة العباسة المتهالكة. توجه هولاكو نحو بغداد عام ٦٥٥هـ/ ١٢٥٧م، وجرت مراسلة بين هولاكو والخليفة العباسي المعتصم بالله لكن رسائل الخليفة كانت تحمل نبرة من التحدي، رغم الوضع البائس للدولة، بل هدد الخليفة هولاكو رغم أن جيش الخليفة لا يتجاوز عدده عشرة آلاف مقاتل، بينما تجاوز عديد جيش المغول المائة وخمسين ألفا، كما ذكر ابن كثير في البداية والنهاية. لذا كان هولاكو حاقدا على بغداد ودمرها أكثر من غيرها من المدن،

بـل وقتـل الخليـف العبـاسي رغـم أن مستشـاريه وحاشـيته نصحـوه ألا يفعل.

اجتـاح هولاكـو بغـداد عـام ٦٥٦هـ/ ١٢٥٨م، وأصـدر أمـرا باسـتباحة بغداد فانتـشر الدمـار والخـراب والسـلب والحـرق في كافة أرجائها، وربمـا حدث ذلك لأن هولاكـو، عليـه مـن اللـه مـا يسـتحق، كان غاضبـا جـدا مـن الخليفـة. وقد هدمـوا المسـاجد والقصـور وسرقـوا محتوياتهـا، وقتـل في تلـك الفـترة العصيبة التـي لم تتجـاوز ٤٠ يومـا أكـثر مـن ٨٠٠ ألف شـخص ويرى بعـض المؤرخين أن عـدد القتـلى قـد تجـاوز ذلـك بكثـير. وبعـد مـرور الأربعـين يومـا أمـر هولاكو بقتـل الخليفـة المعتصم بالله. ولم تسـلم المراكز الثقافية مـن المغول فقد أتلف المغـول مكتبـة بغـداد التـي كانـت أفضل وأضخـم مكتبة على وجـه الأرض، بل وألقـوا بـآلاف الكتـب في نهـر دجلـة حتـى أصبح لـون مياهه يميل إلى السـواد.

بعـد أربعـين يومـا من الخـراب، أعلن هولاكو الأمـان وكان قـد أختبأ الكثير مـن النـاس، ممـن سـلموا من القتـل، في الكهـوف ومجاريـر الـصرف حتى قال بعـض المؤرخـين إن كثـيرا مـن الناس لم يعـرف بعضهم بعضا عندمـا خرجوا من أماكـن اختبائهم لأن أشـكالهم تغـيرت تماما من الجوع والهول الذي شـاهدوه. وانتـشرت الأمـراض والأوبئـة بـين النـاس أيضـا. شـكل هولاكو وقتـذاك حكومة سـميت الحكومـة الإيلخانيـة بالعراق، وقـد أبقى هولاكو بعض كبـار الموظفين في الدولـة في مناصبهم.

لقـد كان لسـقوط بغـداد وقعـا مهـولا عـلى العـالم الإسـلامي، فسـار حـكام بعـض الدويـلات الضعيفـة إلى هولاكـو ليعلنـوا الـولاء، كي يبقيهـم في مناصبهم خصوصـا حاكم الموصل وسـلاطين سـلاجقة الـروم، وعندها أصبحـت الكثير من المـدن جـزءا مـن الإمبراطوريـة المغوليـة دون أن يغزوهـا هولاكو.

القائد قطز

بـرز في تلـك الأيـام نجـم القائـد قطز، وهـو الملـك المظفر قطـز محمود بن خـوارزم شـاه، مـن أصـول مملوكيـة وهـو بطـل وقائـد ومخطـط معركـة عـين

جالـوت، وقاهـر المغـول الذيـن لم تقـم لهم قائمة في الشـام بعـده. ويعتبر أحد أهـم ملـوك مـصر عـلى الإطـلاق، رغـم أن حكمه لم يسـتمر أكثر من سـنة، لأنه اغتيـل بعـد معركـة عين جالـوت بقـترة وجيزة.

كان قطز أحد أولئك الذين أسرهم التتار، وأطلقوا عليه اسما مغوليا وهو قطز، وتعني الكلب الشرس، وكانت تبدو عليه، مذ نعومة أظفاره، علامات القوة والبأس، وهو من أسرة ملكية أيضا، وهي أسرة خوارزم شاه. باعه التتار في أسواق الرقيق في دمشق واشتراه أحد الأيوبيين، وجاء به إلى مصر، ثم انتقل من سيد إلى آخر حتى وصل في النهاية إلى الملك المعز عز الدين أيبك ليصبح أكبر قادته فيما بعد. تربى قطز تربية إسلامية عسكرية، وتربى على الثقة بالله، والثقة بالدين، والثقة بالنفس التي كان لها أثرا كبيرا في حياته، رحمه الله.

وصل قطز إلى الحكم، بعد أن آل عرش مصر إلى طفل صغير، وهو نور الدين أيبك، بعد موت أبيه عز الدين أيبك، وكان السلطان الطفل مشغولا باللهو عن أمور الحكم. وكان بعض أمراء المماليك يستغلون ذلك للتدخل في أمور الحكم، فقام بعزله بعد موافقة العلماء، وأعلن نفسه سلطانا على مصر.

معركة عين جالوت -والانكسار السريع للمغول

وصـل رسـل هولاكـو إلى دمشـق سـنة ٦٥٨هـ/ ١٢٦٠م، وذلـك بعـد سـقوط حلـب، وكانـوا يحملـون فرمانـا «مرسـوما» أمـن فيـه هولاكـو المدينـة وأهلهـا مقابـل تسـليمها، وكان ينـوي هولاكـو السـيطرة عـلى الشـام ليفتـح الطريـق تجـاه دولـة المماليـك في مـصر التـي كانـت إحـدى أقـوى الدويـلات التابعـة للخلافـة العباسـية. وتسـلم القيـادة في مـصر خـلال تلـك الأيـام القائـد قطـز وعمـل عـلى مواجهـة المـد المغـولي. جمـع القائـد قطـز الأمـراء وكبـار العلـماء والقـادة، وحـرص عـلى التواصـل مـع الدولـة الأيوبيـة التـي تسـيطر على بعض المـدن في الشـام، لكنهـم لم يسـتجيبوا لـه، وكان نـاصر يوسـف الأيـوبي يحكـم دمشـق وحلـب التـي خضعـت للمغـول في العـام ذاتـه.

أرسل هولاكو رسالة فيها الكثير من التهديد والوعيد للقائد قطز، لكن قطزا قتل سفراء هولاكو وعلق رؤوسهم على أحد أبواب القاهرة، يسمى باب زويلة، وترك أحد الرسل حتى ينقل خبرهم إلى هولاكو. وكان القائد قطز يستعد للحرب استعدادا جيدا أثناء ذلك، لأن قتله الرسل كان إيذانا بها. وشكل القائد قطز مجلس شورى حربي وأعلن الجهاد والنفير العام في الولايات التي كانت تتبع الدولة المملوكية.

اتبع القائد قطز استراتيجية جديدة ضد المغول، وذلك من خلال الخروج إليهم عكس ما حصل في الدويلات الإسلامية التي اجتاحها المغول حيث كانوا يتحصنون داخلها. اختار منطقة عين جالوت للمعركة الفاصلة، في فلسطين، وهي منطقة تقع بين جبلين ففكر القائد قطز الاستفادة من أرض المعركة من خلال الرماة الذين يمكن لهم أن يعدو الكمائن على الجبال المطلة على أرض المعركة. واختيار هذا المكان يعطي أيضا فرصة للجنود الذين هربوا من مناطق عدة في بلاد الشام خوفا من المغول حتى يتسنى له تجميعهم في منطقة عين جالوت. تحركت جيوش القائد قطز نحو أرض المعركة وتحدث في الجنود قائلا: أيها المسلمون قد سمعتم ما جرى من أهل الأقاليم من القتل والسبي والحرق، وما منكم أحد إلا وله مال وحريم وأولاد، وقد علمتم أن أيدي التتار تحكمت في الشام وقد أوهنوا قوى دين الإسلام، وقد لحقني على نصرة دين الإسلام الحمية، فيجب عليكم يا عباد الله القيام في جهاد أعداء الله حق القيام، يا قوم جاهدوا في الله بصدق النية تجارتكم رابحة وأنا واحد منكم، وها أنا وأنتم بين يدي رب لا ينام ولا يفوته فائت ولا يهرب منه هارب. فضج الأمراء بالبكاء وتقاسموا على أنهم لا بقاء لهم في الدنيا إلى أن تنكشف هذه الغمة.

معركة غزة

تحركت طلائع الجيش المملوكي بقيادة الأمير ركن الدين بيبرس نحو فلسطين، وحقق الجيش انتصارا كبيرا على الحامية المغولية في غزة. وبعد هذه المعركة الصغيرة، التي كانت أول معركة ينتصر بها المسلمون على المغول، أدرك المغول أن المسلمين مازالوا يستطيعون ترتيب صفوفهم ويتحركوا من خلال خطط محكمة. وكان لهذه الغزوة أثر إيجابي على مقاتلي الجيش المسلم، وكانت دافعا لهم كي يتقدموا نحو عين جالوت.

أرسل القائد قطز ركن الدين بيبرس وفرقة من الكشافة ليستطلع أخبار العدو. وبدأت اشتباكات صغيرة بين طلائع الجيش المسلم والمغول في ٢٥ رمضان من سنة ٦٥٨هـ /١٢٦٠م. كان الجيش المغولي بقيادة كبتغا، وهو قائد مقدام إلى حد التهور، ولكن القائد قطز أعد خطة محكمة للإيقاع بالمغول في سهل عين جالوت وذلك من خلال إخفاء قسم كبير من جيش المسلمين بين الجبال وخلف التلال القريبة وذلك ليشجع الجيش المغولي على دخول الموقع أو ما يعرف بالمصطلحات العسكرية بـ «عنق الزجاجة» الذي أرد القائد قطز، رحمه الله، أن يحصرهم به، فتم له ذلك بتوفيق من الله سبحانه.

التقى الجمعان بعد طلوع الشمس وجرت مواجهات طاحنة ثم اضطربت ميسرة جيش المسلمين وكادت أن تنكسر فحمل الملك المظفر قطز بنفسه ومجموعة من عساكره حتى ثبت الميسرة، ثم اقتحم القتال وألقى خوذته وكان يصرخ بأعلى صوته «واإسلاماه، اللهم انصر عبدك قطز على التتار» فأيده الله وثبت أقدام المسلمين وبدأت علامات النصر تلوح بعد ساعات قليلة وأنكسر بعدها جيش المغول كسرا لا جبران بعده، وغنم المسلمون بعد هذه المعركة غنائم عظيمة وكسرت أيضا الحاجز النفسي في قتال المغول الذين استمرت هزائمهم بعد هذه المعركة الفاصلة، حيث قتل فيها أعدادا هائلة منهم بما في ذلك قائدهم كبتغا.

لم يتوقف الجيش المسلم عند عين جالوت، بل واصل مطاردة المغول من مكان إلى آخر إلى أن تم تحرير الشام في وقت قياسي. وهكذا كانت هزيمة المغول سريعة مثلما كانت انتصاراتهم في البداية وقد حاولوا عدة مرات احتلال مدن في الشام بعد عين جالوت لكنهم فشلوا رغم أنهم استطاعوا دخول بعض المدن ولكنهم لم يستطيعوا الصمود فيها بعد معركة عين جالوت.

نزل خبر هزيمة المغول على هولاكو كالصاعقة، وحاول تعويض تلك الخسارة لكنه فشل، وأخزاه الله، إذ أرسل حملة جديدة إلى الشام وباءت بالفشل أيضا، وهلك سنة ٦٦٣هـ/١٢٦٥م.

عين جالوت في الأدب - شهاب الدين الحلبي

سنتحدث في هذا الجزء، إن شاء الله، عن شاعر وأديب عاصر هذه الأحداث الجسيمة التي مرت بالأمة خلال الغزو المغولي وكذلك هزيمة المغول في عين جالوت. إنه شهاب الدين محمود الحلبي وهو أحد شعراء العصر المملوكي، ممن أتقنوا وأجادوا الشعر وفنون اللغة وقد بدى ذلك جليا في شعره. ولد سنة ٦٤٤هـ/ ١٢٤٧م في مدينة حلب. وانتقل مع والده إلى دمشق وهو في سن العاشرة. درس على يد عدد من العلماء واشتغل في الفقه وأجاد علوم اللغة العربية. وتولى كتابة السر في مدينة دمشق نحو ثمان سنين قبل وفاته. لقد روى وحدث عنه الذهبي، وقال عنه إنه حسن المجاورة وله كثير من الفضائل. مدح الحلبي الظاهر بيبرس، وهو أحد قادة هذه المعركة، قائلا:

سر حيث شئت لك المهيمن جار واحكم فطوع مرادك الاقدار
لم يبق للدين الذي أظهرته يا ركنه عند الأعادي ثار
لما تراقصت الرؤوس وحركت من مطربات قسيك الأوتار
حملتك أمواج الفرات ومن رأى بحرا سواك تقله الأنهار
شكرت مساعيك المعاقل والورى والترب والآساد والاطيار
هذي منعت وهؤلاء حميتهم وسقيت تلك وعم ذا الإيسار

وقال يمدح الرسول، صلى الله عليه وسلم، وكان هذا أكثر شيء اشتهر به والأكثر شيوعا في ديوانه:

محمد سيد السادات أكرم من علت بملته فوق الورى الرتب
محمد المصطفى الهادي الذي شهدت ببعثه أنبياء الله والكتب
ومن به طهر البيت الحرام وقد علت على الكعبة الأوثان والنصب
وانشق إيوان كسرى يوم مولده من فوقه وخبا من ناره اللهب
والجن صدت عن السمع الذي صعدت من أجله وتهاوت نحوها الشهب
وفي الغمامة إذ كانت تظلله أنى توجه مرأى كله عجب
كأنها خيمة في الجو مائلة وما لها عمد فيه ولا طنب

ويشير إلى أنه مهما قال لا يستطيع أن يعبر عن المدح الذي يستحقه رسول الله، صلى الله عليه وسلم، فيقول:

ماذا أقول وقولي فيه ذو حصر ودون أوصافه الأشعار والخطب

توفي، رحمه الله، ليلة السبت ٢٢ شعبان سنة ٧٢٥هـ/ ١٣٢٥م، ببيته وشيعه أعيان الدولة. وحضر الصلاة عليه نائب السلطنة، ودفن في دمشق.

المغول: القاهرة عاصمة الخلافة الإسلامية

دخول الإسلام إلى عرين الإمبراطورية المغولية

نواصل، إن شاء الله، الحديث عن الإمبراطورية المغولية وأثرها على العالم الإسلامي وكيفية تحول المغول من شعب همجي لا يعرف إلا الدمار والخراب إلى شعب متحضر ومسلم يدعو إلى الإسلام، بل وأصبحوا من الفاتحين إذ أدخلوا الإسلام إلى بقاع من الأرض لم يدخلها من قبل، خصوصا في مناطق الصين والشرق الأقصى. وسنتحدث أيضا عن شاعر وأديب جديد هو ابن الوردي الذي عاصر بعض هذه الاحداث التاريخية الجسيمة.

تغير الفكر المغولي

من يقرأ تاريخ المغول يصاب بالدهشة نتيجة التحولات العظيمة التي طرأت في أوج قوة هذه الدولة الفتية، ففي بداية نهوض الدولة تتجلى همجية المغول وبربريتهم وكان تاريخهم حافلا بالقتل والسلب، ولم يسلم منهم حتى الأطفال، ولكنهم تحولوا خلال فترة وجيزة إلى مسلمين محبين للخير. وهذا بفضل دين الله الحنيف الإسلام، إذ أن العرب قبل الإسلام كانوا يعانون من العديد من العادات غير المحمودة وكانوا يرتكبون الجرائم مثل وأد البنات فجاء الإسلام فهذبهم، بل وجعل الأفضلية لأحسنهم أخلاقا ومن هم خيرهم لأهلهم.

وإذا تصفحنا تاريخ المغول نلاحظ أن رسالة هولاكو إلى سلطان مصر كانت مليئة بالتهديد والوعيد والتكبر والتجبر ولكن رسالة الحاكم المغولي تكودار، الذي أسلم وسمى نفسه أحمد، إلى سلطان مصر بعد سُنيَّات وجيزة، كانت رسالة أخوة وفيها الكثير من المعاني السامية، وهذا ليس بالغريب لأن الإسلام آخى بين أعداء الأمس.

القاهرة عاصمة الخلافة العباسية الجديدة

كان لسقوط بغداد على أيدي المغول ومقتل الخليفة العباسي أثر بالغ في نفوس المسلمين، وكذلك خلو الأرض من خليفة للمسلمين وقد اعتادوا ذلك منذ بدايات الإسلام الأولى. وعندما تولى الحكم في مصر السلطان المملوكي الظاهر بيبرس أتى بأحد أفراد الأسرة العباسية ونصبه خليفة للمسلمين سنة ٦٥٩هـ/١٢٦٠م، وكانت الخلافة في تلك الأيام أشبه بالسلطة الرمزية لأن الخليفة لم يكن الآمر الناهي فيها. وقد أصبحت القاهرة مركز النشاط السياسي والثقافي للمسلمين، وكان الظاهر بيبرس يهدف من خلال إحياء الخلافة إلى إعطاء ملكه صفة شرعية، والتوسع تحت مظلة الخلافة العباسية. وقد استمر هذا الوضع في مصر إلى أن استولى عليها السلطان العثماني سليم الأول سنة ٩٢٣هـ/١٥١٧م.

المغول والإسلام

كان المغول في بدايتهم شديدي العداء للإسلام والمسلمين ونكلوا بالمسلمين في الكثير من المواقع ودمروا بغداد عاصمة الخلافة العباسية ونهبوا الممتلكات وأهلكوا الحرث والنسل. وكما ذكرنا سالفا لم يستطع المغول المكوث في الشام إلا قليلا، ولكنهم مكثوا مدة أطول بكثير في بلاد فارس والعراق. وفي الواقع، لم يدخل المغول كافة بلاد المسلمين كما يظن البعض وإنما دخلوا جزءا منها وهو شرقي الدولة الإسلامية.

ومن أعجب ما حدث بين المسلمين والمغول هو تحول العداء إلى أخوة بعد أن آخى بينهم الإسلام. ولم يمض المغول نصف قرن بعد دخول بعض المناطق الإسلامية حتى تحول معظمهم إلى مسلمين واعتنقوا الدين الحق، بل وأصبحوا دعاة له وفاتحين وحاربوا حتى أبناء جلدتهم من المغول في سبيل نصرة الإسلام، فسبحان الله، وما يعلم جنود ربك إلا هو.

وقال بعض المؤرخين إن بعض المغول لم يستطيعوا التخلص من بعض العادات المغولية التي جبلوا عليها منذ الصغر حتى بعد اعتناقهم الإسلام، ولكن في الوقت ذاته، لا ينكر أحد الدور الكبير الذي لعبوه في نشر الإسلام في أقصى الشرق.

انتشار الإسلام في التتار

بدأت دعوة الإسلام تنتشر فجأة في هذا الشعب الهمجي وتحقق على أيدي دعاة الإسلام ما لم يتحقق بسيوفهم، وبدأ الإسلام يتغلغل في نفوس أعدائه وخضع هذا الشعب، الذي قهر شعوب الشرق المسلمة، للإسلام. وتعتبر هذه أحد أغرب الوقائع التاريخية إذا تحول الغازي المنتصر إلى أخ للضحية يتبع نفس الدين ونفس المنهج، خصوصا أن المغول اعتنقوا الإسلام في أوج قوتهم.

لقد انقسمت دولة جنكيز خان بعد موته إلى أربعة أقسام، وبدأ الإسلام ينتشر في هذه الدولة ومن رأس الهرم، أي من الحكام أولا، ومن ثم انتشر بين الرعية. كان بركة خان الذي تولى الحكم ١٢٥٦-١٢٦٧ أول من أسلم من أمراء المغول حيث كان يترأس القبيلة الذهبية. وذكر أنه أسلم بعد أن التقى بتجار مسلمين قادمين من بخارى فسألهم عن الإسلام فشرحوا له ما أراد عن الإسلام واعتنق الإسلام بعدها وأخلص لدينه.

كتب ابن كثير عن إسلام غازان في وقائع سنة ٦٩٤هـ بارتياح بالغ، ويؤيده في ذلك غيره من المؤرخين، وبينوا أن الفضل في ذلك يرجع إلى الأمير التركي الصالح توزون الذي أدت جهوده إلى إسلام غازان الذي شب على البوذية، وكان سابع الإيلخانات، وأعظمهم شأنا في الدين الإسلامي لأنه جعله دين الدولة الرسمي في بلاد فارس. وبعد إسلام غازان دخلت التتار أو أكثرهم في الإسلام ونثر الذهب والفضة واللؤلؤ على رؤوس الناس يوم إسلامه، وتسمى بمحمود، وشهد الجمعة والخطبة، وفرض الجزية على غير المسلمين ورد مظالم كثيرة ببغداد وغيرها من بلاد المسلمين.

وبعد سنين قليلة ظهر أول ملك مسلم في كاشغر، الصين. قال عدد من المؤرخين إن إسلام تغلق تيمور خان (١٣٤٧- ١٣٦٣م)، ملك كاشغر، كان على يد رجل من أهل الورع والتقوى من مدينة بخارى، يقال له الشيخ جمال الدين، وكان معه جماعة من التجار، وكانوا قد اعتدوا على الأراضي التي خصصها ذلك الأمير للصيد. فأمر بأن توثق أيديهم وأرجلهم، وأن يمثلوا بين يديه. ثم سألهم بغضب: كيف تجرؤوا على دخول هذه الأرض؟ فأجاب الشيخ بأنهم غرباء ولا يعلمون أنهم دخلوا أرضا محرمة. ولما علم الأمير أنهم من الفرس المسلمين، قال: إن الكلب أغلى من أي فارسي، فأجاب الشيخ: نعم! قد كنا أخس من الكلب وأبخس ثمنا منه، لو أننا لم ندن بالدين الحق.

ولما راع الأمير ذلك الجواب أمر بأن يقدم إليه ذلك الفارسي الجسور عند عودته من الصيد، ولما خلا به سأله ماذا يعني بهذه الكلمات، وما ذلك الدين؟ فعرض عليه الشيخ قواعد الإسلام بطريقة محببة وصور له الكفر بصورة مروعة اقتنع معها بضلال معتقداته وفسادها، فقال: ولكني إذا اعتنقت الإسلام الآن فلن يكون من السهل أن أهدي رعاياي فلتمهلني قليلا، فإذا ما آلت إلي مملكة أجدادي فعد إلي.

وبعدها انقسمت إمبراطورية جغطائي إلى إمارات صغيرة وظلت كذلك سنين طويلة، حتى نجح تغلق بن تيمور في توحيد الإمبراطورية كلها تحت سلطانه، وفي هذا الوقت عاد الشيخ جمال الدين إلى بلده لكنه مرض مرضا شديدا فلما أشرف على الموت قال لابنه رشيد الدين: سيصبح تغلق تيمور يوما ما ملكا عظيما، فلا تنس أن تذهب إليه وتقرئه مني السلام ولا تخش أن تذكره بوعده الذي قطعه لي. ولم يلبث رشيد الدين إلا سنين قليلة، حتى ذهب إلى معسكر الخان، تنفيذا لوصية أبيه، بعد أن استرد تغلق عرش الإمبراطورية، لكنه لم يستطيع أن يظفر بالمثول بين يدي الخان رغم ما بذله من جهود. وأخيرا لجأ إلى حيلة طريفة، فذات يوم أخذ يؤذن في الصباح المبكر على

مقربة من فسطاط الخان فأقلق ذلك الصوت نوم الخان، وأثار غضبه فأمر بإحضاره ومثوله بين يديه، وهناك أدى رشيد الدين رسالة أبيه، ولم ينس تغلق تيمور وعده، وقال: «حقا ما زلت أذكر ذلك منذ اعتليت عرش آبائي، ولكن الشخص الذي قطعت له ذلك الوعد لم يحضر من قبل، والآن فأنت على الرحب والسعه». ثم أقر بالشهادتين وأصبح مسلما منذ ذلك الحين، وأشرقت شمس الإسلام ومحت بنورها ظلام الكفر. ولكي ينشر هذا الدين بين رعاياه اتفق تغلق تيمور ورشيد الدين على أن يستقبل الملك الأمراء واحدا تلو الآخر، ويعرض عليهم الإسلام فمن قبله جوزي الجزاء الحسن، ومن أباه ذبح كما يذبح الوثنيون وعباد الأصنام - البداية والنهاية لابن كثير.

ابن الوردي

سنتحدث في هذا الجزء، إن شاء الله تعالى، عن شاعر وأديب عاصر هزائم المغول وانحسارهم عن أرض العرب. إنه زين الدين عمر بن مظفر بن عمر بن أبي الفوارس البكري المعري الفقيه والمؤرخ النحوي الأديب. ويعود نسبه إلى الخليفة الراشدي الأول أبي بكر الصديق، رضي الله عنه وأرضاه.

حياته

ولد في معرة النعمان سنة ٦٨٩ هـ / ١٢٩٠ م، في بلدة الشاعر والأديب المشهور أبو العلاء المعري. ونشأ فيها فأخذ العلم عن شيوخها، ثم انتقل إلى حلب والتحق بحلقات العلم وانتقل إلى حماة ودمشق والقاهرة لطلب العلم فبرع في الفقه والنحو والشعر والنثر.

عمل ابن الوردي في القضاء والتدريس وتولى القضاء في أكثر من بلدة وتولى قضاء دمشق أيضا. وبعد أن أتعبه القضاء تركه وبنى مدرسة في معرة النعمان، ثم تفرغ للتدريس والتصنيف فيما تبقى من عمره.

أعماله الأدبية

يعتبر ابن الوردي أحد الشعراء والفقهاء والأدباء البارزين وله العديد من المؤلفات والكتب والقصائد، مثل: تاريخ ابن الوردي، الشهاب الثاقب، بحور الشعر، الخصاصة في تيسير الخلاصة، ضوء الدرة والعديد من الأعمال الأخرى إضافة إلى مجموعة من القصائد التي جمعت في ديوانه. سنذكر الآن بعض الأبيات من لاميته المعروفة باسم لامية ابن الوردي:

اعتزل ذكر الأغاني والغزل وقل الفصل وجانب من هزل
ودع الذكر لأيام الصبا فلأيام الصبا نجم أفل
إن أهنا عيشة قضيتها ذهبت لذاتها والإثم حل
واتق الله فتقوى الله ما جاورت قلب امرئ إلا وصل
كتب الموت على الخلق فكم فل من جيش وأفنى من دول
أين نمرود وكنعان ومن ملك الأرض وولى وعزل
أين عاد أين فرعون ومن رفع الأهرام من يسمع يخل
أين من سادوا وشادوا وبنوا هلك الكل ولم تغن القلل
أين أرباب الحجى أهل النهى أين أهل العلم والقوم الأول
سيعيد الله كلا منهم وسيجزي فاعلا ما قد فعل
إي بني اسمع وصايا جمعت حكما خصت بها خير الملل
أطلب العلم ولا تكسل فما أبعد الخير على أهل الكسل
واهجر النوم وحصله فمن يعرف المطلوب يحقر ما بذل
لا تقل قد ذهبت أربابه كل من سار على الدرب وصل
في ازدياد العلم إرغام العدى وجمال العلم إصلاح العمل
ملك كسرى عنه تغني كسرة وعن البحر اجتزاء بالوشل
اعتبر نحن قسمنا بينهم تلقه حقا وبالحق نزل
اطرح الدنيا فمن عاداتها تخفض العالي وتعلي من سفل
كم جهول بات فيها مكثرا وعليم بات منها في علل
كم شجاع لم ينل فيها المنى وجبان نال غايات الأمل
فاترك الحيلة فيها واتكل إنما الحيلة في ترك الحيل
لا تقل أصلي وفصلي أبدا إنما أصل الفتى ما قد حصل
قد يسود المرء من دون أب وبحسن السبك قد ينقى الدغل
إنما الورد من الشوك وما ينبت النرجس إلا من بصل
غير أني أحمد الله على نسبي إذ بأبي بكر اتصل

جانب السلطان واحذر بطشه ... لا تعاند من إذا قال فعل
إن نصف الناس أعداء لمن ... ولي الأحكام هذا إن عدل
لا توازي لذة الحكم بما ... ذاقه الشخص إذا الشخص انعزل
فالولايات وإن طابت لمن ... ذاقها فالسم في ذاك العسل
قصر الآمال في الدنيا تفز ... فدليل العقل تقصير الأمل
إن من يطلبه الموت على ... غرة منه جدير بالوجل
غب وزر غبا تزد حبا فمن ... أكثر الترداد أقصاه الملل
غير أني في زمان من يكن ... فيه ذا مال هو المولى الأجل
واجب عند الورى إكرامه ... وقليل المال فيهم يستقل
كل أهل العصر غمر وأنا ... منهم فاترك تفاصيل الجمل
وصلاة الله ربي كلما ... طلع الشمس نهارا وأفل
للذي حاز العلى من هاشم ... أحمد المختار من ساد الأول
وعلى آل وصحب سادة ... ليس فيهم عاجز إلا بطل

الخاتمة

كانت حياته، رحمه الله، حافلة بالإنجازات ونشر العلم والمعرفة إلى أن وافته المنية وتوفي بالطاعون في مدينة حلب سنة ٧٤٩ هـ / ١٣٤٩ م.

الفهرس

الصفحة

المقدمة ٥

تمهيد ٧

الفصل الأول : العصر الجاهلي ١٣

امرؤ القيـس ١٥

طرفة بن العبـد ٢٣

الأعشى ٢٨

عنترة ٣٢

السموأل ٣٧

عمرو بن كلثـوم ٤١

الصعاليـــك ٤٥

عروة بن الـورد ٤٦

الشنفرى ٥٠

تأبط شرا ٥٤

الفصل الثاني : صدر الإسلام ٥٩

الـبراء بـن مالك و كعب بن مالـك ٦١

النعـمان بن مقرن ولبيد بـن ربيعـة ٦٨

كعب بن زهـير ٧٣

القاضي شريـح ٧٧

الخنسـاء وليلى الأخيلية ٨١

الفصل الثالث : العصر الأموي ٨٧

أبو الأسـود الـدؤلي ٨٩

الحجاج بن يوسـف الثقفـي ٩٣

جرير ١٠٢

قيس بـن الملوح وليلى العامريـة ١٠٧

الفصل الرابع : العصر الأندلسي ١١١
صقر قريش وابن زيدون ١١٣
ابن زيـدون ١١٧
أبو البقاء الرندي ١٢٠
المعتمد بن عباد ١٢٣
أمير غرناطة يوسف الثالث ١٢٨

الفصل الخامس : العصر العباسي ١٣٣
أبو الطيب المتنبي ١٣٥
أبو العتاهية ١٤٠
الأصمعي ١٤٥
أبو تمام ١٥٠
محمد بن جرير الطبري ١٥٤
أبو عبدالله ياقوت الحموي ١٥٨
ابن زريق البغدادي ١٦٢

الفصل السادس : عصر الدول المتتابعة (العصر المملوكي) ١٦٧
المغول- بين الانتصارات السريعة والسقوط الخاطف ١٦٩
شـهاب الدين الحلبي ١٧٦
المغول – القاهرة عاصمة الخلافة الإسلامية ١٧٨
ابن الوردي ١٨٢